
تذكرة النفس والإخوان
بما ينبغي التنبيه
له في كل زمان
بقلم جامعه
الفقير إلى المنَّان
عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان
غفر الله له ولوالديه آمين
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
قسم النوادر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فهذه مسائل مفيدة، وفوائد وقواعد جليلة، جمعتها تذكرة لنفسي ولمن أَحبَّ ذلك من إخوتي، من كتب شمس الدين وعَلَم الهداة المهتدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، رفع الله منزلته في الجنة العلية، ما عدا أشياء قليلة أثبتّها من كتب أخرى لمناسبتها لما أردته وقصدته.

وسميت هذا المجموع (تذكرة النفس والإخوان بما ينبغي التنبه له في كل زمان).

واعلم أيها الناظر إليه بأن ليس له فيه إلا الاختيار والاختصار والتنبيه على المقصود بالعنوان، وقد أوضحت عند نهاية كل بحث في الحاشية اسم الكتاب أو اسم مؤلفه المنقول عنه.

وأسأل الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفعني ومن سمعه ونظره بما حررته فيه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

جامع الكتاب

عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان

عفا الله عنه بمنِّه وكرمه

فضل التذكير بالله -تعالى- ومجالس الذكر

قال الله -تعالى-: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾.

وقال الله -عز وجل-: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾.

وقال-تعالى-: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾.

وقال العرباض بن سارية -رضي الله عنه-: "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون".

وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "نعم المجلس المجلس الذي تُنشر فيه الحكمة وتُرجى فيه الرحمة هو مجلس الذكر".

وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه فقال: "أَدْنِهِ من الذكر".

وقال: مجلس الذكر محياة العلم ويحدث في القلب الخشوع، القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر.

بذكر الله ترتاح القلوب ودنيانا بذكراه تطيب

وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة وتحف الملائكة، ويذكر الله أهلها فيمن عنده، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فربما رُحِمَ معهم من جلس إليهم وإن كان مذنبًا، وربما بكى فيهم باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له، وهي رياض الجنة؛ قال النبي ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: «**مجالس الذكر**».

فإذا انقضى مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام؛ فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر ولا يزداد هدى ولا يرتدع عن ردى، وهؤلاء شر الأقسام، ويكون ما سمعوه حجة عليهم فتزداد به عقوبتهم، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾.

ومنهم من ينتفع بما سمعه، وهم على أقسام:

فمنهم من يَرُدُّه ما سمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات، وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين.

ومنهم من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات، ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات، وهؤلاء السابقون المقربون.

وينقسم المنتفعون بسماع مجلس الذكر في استحضار ما سمعوه في المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام؛ فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم أن يكون نفاقًا، فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق، وفي صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال: يا رسول الله، نافق حنظلة، قال: وما ذاك؟ قال: نكون عندك تُذكِّرنا بالجنة والنار كأنها رأي عين، فإذا رجعنا من عندك عافسنا [1] الأزواج والضيعة ونسينا كثيرًا فقال: «**لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**».

وفي رواية له أيضًا: «**لو كانت قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق**».

ومعنى هذا أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جدًا، ولا يقدر كثير من الناس أو أكثرهم عليه، فيكتفي منهم

---

(1) معنى عافسنا: عالجنا.

بذكر ذلك أحيانًا. وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك بل يلوم نفسه عليه ويحزنه ذلك من نفسه.

وقسم آخر يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازمًا لهم، وهؤلاء على قسمين.

أحدهما: من يشغله ذلك عن مصالح دنياه المباحة فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ولا القيام بوفاة حقوقهم، وكان كثير من السلف على هذه الحال.

فمنهم من كان لا يضحك أبدًا، ومنهم من كان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

والثاني: من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال والقيام على العيال والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهؤلاء أشرف القسمين، وهم خلفاء الرسل، وهم الذي قال فيهم على رضى الله عنه: صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر تتغير ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم.

ففي مسند البزار ومعجم الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي قلت: نذير قوم، فإذا سُرّي عنه، فأكثر الناس ضحكًا وأحسنهم خلقًا.

وفي مسند الإمام أحمد عن علي أو الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فيذكرنا بأيام الله حتى نعرف ذلك في وجهه، وكأنه نذير جيش يصبحهم الأمر غدوة وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكًا حتى يرتفع عنه [١].

شرف العلم والعبادة

اعلم أن العلم والعبادة، جوهران لأجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين، وتعلم المعلمين، ووعظ الواعظين، ونظر الناظرين، بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، ولأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهما.

فتأمل آيتين في كتاب الله تعالى: إحداهما قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** * ﴾ وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم ولا سيما علم التوحيد، والثانية قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها.

فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الله — تعالى – فحق للعبد أن لا يشتغل إلا بهما، ولا ينظر إلا فيهما.

---

(1) من لطائف المعارف لابن رجب باختصار.

واعلـم أن مـا سـواهما مـن الأمـور لا خـير فيـه ولا حاصـل فيـه فـإذا علمت ذلك. فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما، ومع ذلك فلا بد مع العلم من العمل به، وإلا كان هباءً منثورًا فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة بمنزلة الثمرة والشرف للشجرة إذ هي الأصل لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرها، فإذا لا بد لك من كل من الأمرين حظ ونصيب بل لا بد لك من أربعة أشياء: العلم، والعمل، والإخلاص، والخوف، فيعلم الطريق أولا وإلا فهو أعمى، ثم يعمل بعمل ثانيًا، وإلا فهو محجوب ثم يخلص العمل ثالثًا وإلا فهو مغبون ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات وإلا فهو مغرور، فإن الأعمال بخواتيمها، وما يدري ما يُختم له[1] .

عنوان سعادة العبد، وبيان ما افترض الله عليه في طبقاته الثلاثة الملازمة له في هذه الحياة

الله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يتولانا في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ علينا نعمه الظاهرة والباطنة، وأن يجعلنا ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبدًا فإن العبد دائمًا يتقلب بين هذه الأطباق الثلاث.

نعم من الله – تعالى – تترادف عليه، فقيدها الشكر وهو مبني على ثلاثة أركان:

---

(1) من كلام الغزالي.

أولا: الاعتراف بها باطنًا والتحدث بها ظاهرا، وتعريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثاني: محن من الله – تعالى – يبتليه بها، ففرضه فيها الصبر والتسلي، والصبر حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتليه ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله –تعالى– على العبد عبودية في الضراء كما له عليه عبودية في السراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عليه عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون فقط. والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تتفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله –تعالى– فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية، ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية، هذا والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في ضراء عبودية، ولكن فرق عظيم بين العبوديتين.

فمن كان عبدا لله في الحالتين قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب فذلك الذي تناوله قوله تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ وفي

القراءة الأخرى عبادة، وهما سواء؛ لأن المفرد مضاف فيعم عموم الجمع، فالكفاية التامة مع العبودية التامة، والناقصة مع الناقصة فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، وهؤلاء عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾.

ولما علم عدو الله إبليس أن الله -تعالى- لا يسلم عباده إليه، ولا يسلطه عليهم قال: ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** ﴾ فلم يجعل لعدوه سلطانًا على عباده المؤمنين، فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل العاقل، فهذا لا بد منه؛ فإن العبد قد بلي بالغفلة والشهوة والغضب ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة، ولو احترز العبد ما احترز، فلا بد له من غفلة، ولا بد له من شهوة، ولا بد له من غضب.

وقد كان آدم أبو البشر ﷺ من أحلم الخلق، وأرجحهم عقلاً، وأثبتهم، ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيما أوقعه فيه، فما

الظن بفراشة الحلم[1] ومن عقله في جنب عقل أبيه كتفلة في بحر، ولكن عدو الله لا يخلص إلى المؤمن إلا غيلة، وعلى غرة وغفلة فيوقعه.

ويظن أنه لا يستقبل ربه -عز وجل- بعدها. وأن تلك الوقعة قد اجتاحته وأهلكته وفضل الله -تعالى- ورحمته وعفوه ومغفرته وراء ذلك كله.

فإذا أراد بعبده خيراً فتح له أبواب التوبة والندم والانكسار، والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته حتى يقول عدو الله يا ليتني تركته ولم أوقعه، وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مشفقًا وجلا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه -تعالى- ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له، فيكون ذلك ذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه شيئًا، ويعجب بها، ويستطيل بها ويقول: فعلت وفعلت، فيورثه من العجب والكبر

---

(1) أي: أن حلمه بالنسبة إلى آدم حمق، فإن الفراشة أشد شيء حمقًا إذا ترمي نفسها في النار.

والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله -تعالى- بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به، ويذل به عنقه، ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه؛ فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق: هو أن لا يكلك الله -تعالى- إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله -تعالى- إلى نفسك[١].

عنوان إرادة الله بعبده الخير

وبيان القاعدتين اللتين عليهما مدار العبودية، وهما أصلها

من أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والإنكار ودوام اللجوء إلى الله -تعالى- والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه، وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده.

فالعارف: سائر إلى الله -تعالى- بين هذين الجناحين[٢] لا يمكنه أن يسير إلا بهما. فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله — تعالى: العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل، وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله عنه: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم، أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك**

---

(1) من الوابل الصيب.

(2) الأول: شهود عيوب النفس... إلخ، والثاني: شهود فضل ربه... إلخ.

وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» فجمع في قوله ﷺ أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي: مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل، فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار التوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلسًا، وأقرب باب يدخل منه العبد على الله -تعالى- هو باب الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالا ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها بل يدخل على الله من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض، دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه -عز وجل- وكمال فاقته وفقره إليه، وأن كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود إلى الله -تعالى- ويتداركه برحمته، ولا طريق إلى الله -تعالى- أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوة والعبودية: مدارها على قاعدتين هما أصلها حب كامل وذل تام.

ومنشأ هذين الأصلين على ذينك الأصلين المتقدمين، وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام.

وإذا كان العبد قد بني سلوكه إلى الله -تعالى- على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله -عز وجل- ويجبره ويتداركه برحمته [١] .

السبب الذي به يستقيم بناء السلوك إلى الله -تعالى- على هذين الأصلين

وبيان استقامة القلب والجوارح

لا يستقيم للعبد بناء سلوكه إلى الله -تعالى- على هذين الأصلين إلا باستقامة قلبه وجوارحه، فاستقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله -تعالى- تتقدم عنده على جميع المحاب. فإذا تعارض حب الله -تعالى- وحب غيره سبق حب الله -تعالى- حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه، وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وأكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه، أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله -تعالى- في قلبه جميع المحاب، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها وسنة الله -تعالى- فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه ولا ينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق، أو يؤثر محبته على محبة الله، وقد قضي الله -تعالى- قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئًا سواه عذب به ولا بد، وإن من

(1) من الوابل الصيب.

خاف غيره سلطه عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه ومن آثر غيره لم يبارك فيه ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الثاني: الذي يسقيم به القلب تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله -تعالى- ذم من لا يعظمه، ولا يعظم أمره ونهيه قال سبحانه وتعالى: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾ قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله -تعالى- عظمة.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام رحمه الله -تعالى- في تعظيم الأمر والنهي، هو أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعارضا بتشديد غال، ولا يحملا على علة توهن الانقياد، ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق -عز وجل- تعظيم أمره ونهيه، وذلك؛ لأن المؤمن يعرف ربه -عز وجل- برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله -عز وجل- وأتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله -تعالى- ونهيه دالا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر؛ فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق، وطلب المنزلة والجاه عندهم. ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم وخشية العقوبات الدنيوية، من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر الناهي.

فعلامة التعظيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحينها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنها لو تقبلت منه صلاته منفردًا فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا، ولو أن رجلا يعاني البيع والشراء يفوته في صفقة واحدة في بلدة من غير سفر ولا مشقة سبعة وعشرون دينارًا لأكل يديه ندمًا وآسفًا فكيف وكل ضعف ما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف، وما شاء الله – تعالى– فإذا فوت العبد على نفسه هذا الربح – وكثير من العلماء يقول: لا صلاة له – وهو بارد القلب، فارغ من هذه المصيبة غير مرتاع لها، فهذا من عدم تعظيم أمر الله –تعالى– في قلبه.

وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله –تعالى– أو فاته الصف الذي يصلي الله وملائكته على ميامنه ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قرعة.

وكذلك لو فوت الجمع الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته، وكلما كثر الجمع كان أحب إلى الله –عز وجل– وكلما بعدت الخطى كانت كل خُطوة تحط خطيئة وأخرى ترفع درجة.

وكذلك لو فوت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيما بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روح الصلاة ولبها فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جارية ميتة فما ظن هذا العبد أن

تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو أمير أو غيره، فهكذا سواء الصلاة الخالية من الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله -تعالى- فيها بمنزلة هذه الأمة أو العبد الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله -تعالى- منه، وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليصلي الصلاة، وما كتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى بلغ عشرها**».

وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى فتفاضل الأعمال عند الله -تعالى- بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، والمحبة وتوابعها وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر السيئات تكفيرًا كاملا والناقص بحسبه وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان.

وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه، وأما علامات تعظيم الناهي: فالحرص على التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في المكروه، ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو إليها، ويتهاون بها، ولا يبالي ما ركب منها، فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط

الله -تعالى- وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله -تعالى- وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضب الله -عز وجل- إذا انتهكت محارمه وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عصى الله -تعالى- في أرضه، ولم يطع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط، مثال ذلك أن السنة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر فالترخص الجافي أن يبرد إلى فوات الوقت أو مقاربة خروجه فيكون مترخصًا جافيًا.

وحكمة هذه الرخصة أن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وضجر.

فمن حكمة الشارع ﷺ: أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر فيصلي العبد بقلب حاضر، يحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى.

ومن هذا نهيه ﷺ أن يصلي بحضرة الطعام أو عند مدافعة البول والغائط لتعلق قلبه من ذلك بما يشوش عليه مقصود الصلاة، ولا يحصل المراد منها فمن فقه الرجل في عبادته أن يقبل على شغله فيعمله ثم يفرغ قلبه للصلاة فيقوم فيها، وقد فرغ قلبه لله -تعالى- ونصب وجهه له، وأقبل بكليته عليه، فركعتان من هذه الصلاة يغفر

للمصلي بهما ما تقدم من ذنبه، والمقصود أن لا يترخص ترخصًا جافيًا.

ومن ذلك أنه رخص للمسافرين في الجمع بين الصلاتين عند العذر وتعذر فعل كل صلاة في وقتها لمواصلة السير وتعذر النزول أو تعسر عليه، فإذا أقام في المنزل اليومين والثلاثة، أو أقام اليوم فجمعه بين الصلاتين لا موجب له لتمكنه من فعل كل صلاة في وقتها من غير مشقة، فالجمع ليس سنة راتبة كما يعتقد أكثر المسافرين أن سنة السفر الجمع سواء وجد عذر أو لم يوجد بل الجمع رخصة عارضة، والقصر سنة راتبة فسنة المسافر قصر الرباعية سواء كان له عذر أو لم يكن، وأما جمعه بين الصلاتين فحاجة ورخصة فهذا لون وهذا لون.

ومن هذا أن الشبع في الأكل رخصة غير محرمة، فلا ينبغي أن يجفو العبد فيها حتى يصل به الشبع إلى حد التخمة والامتلاء فيتطلب ما يصرف به الطعام فيكون همه بطنه قبل الأكل وبعده، بل ينبغي للعبد أن يجوع ويشبع ويدع الطعام وهو يشتهيه، وميزان ذلك قول النبي ﷺ ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، ولا يجعل الثلاثة الأثلاث كلها للطعام وحده.

وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي فهو كمن يتوسوس في الوضوء متغاليًا فيه حتى يفوت الوقت أو يردد تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة أو يكاد تفوته الركعة، أو يتشدد في الورع الغالي حتى لا يكاد يأكل شيئًا من طعام عامة المسلمين، خشية دخول الشبهات عليه، ولقد دخل هذا الورع الفاسد على بعض

العباد الذين نقص حظهم من العلم حتى امتنع أن يأكل شيئًا من بلاد الإسلام، وكان يتفوت بما يحمل إليه من بلاد النصارى، ويبعث بالقصد لتحصيل ذلك فأوقعه الجهل المفرط والقلق الزائد في إساءة الظن بالمسلمين، وحسن الظن بالنصارى، نعوذ بالله من الخذلان فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشديد غال، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله -عز وجل- بسالكه.

وما أمر الله -عز وجل- بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشيمه[1] فإن وجد فيه فتورًا وتوانيًا وترخيصًا أخذه من هذه الخطة فبسطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك حتى ربما ترك العبد المأمور جملة.

وإن وجد عنده حذرًا وجدًا وتشميرًا ونهضة وأيس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد، وسول له أن هذا ما يكفيك ونعمتك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضأ

---

(1) أصل الشيم للنظر إلى البرق، ومن شأنه أن يبدو ويخفى بسرعة تشبه استراق الشيطان للنظرة والتطلع إلى القلب بذلك. اهـ.
من حاشية الأصل، وفي نسخة (فيستامه)، ولعل الصواب: فيشمه.

للصلاة فاغتسل أنت لها ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه، وأن لا يقر به، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم هذا بأن لا يقر به، ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط، والله المستعان.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلم لأمر الله – تعالى– وحكمه ممتثلا ما أمر به سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر؛ فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد والبذل والتسليم، ولا يحمله ذلك على الانسلاخ منه وتركه كما حمل ذلك كثيرًا من زنادقة الفقراء والمنتسبين إلى التصوف فإن الله –عز وجل– شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره واستعمالا للقلب والجوارح واللسان في العبودية، وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التي هي المقصود بخلق العبد فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية[١] .

ما ينجي العبد من الشيطان، ويحصل به الفوز في الدنيا والآخرة

روى الإمام أحمد رضي الله عنه والترمذي من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى**

---

(1) من الوابل الصيب باختصار.

بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وأنه كاد يبطئ بها فقال له عيسى عليه السلام: إن الله -تعالى- أمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها. فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف فقال: إن الله تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعلمهن وأن آمركم أن تعملوا بهن، أولاهن أن تعبدو الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأدِّ إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك، وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت. وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه، وإن ريح الصائم أطيب عند الله -تعالى- من ريح المسك. وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفتدي نفسي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم، وأمركم أن تذكروا الله تعالى: فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد ولا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى»

قال النبي ﷺ «**وأنا آمركم بخمسٍ اللهُ أمرني بهن: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ومن ادعى دعوى الجاهلية، فإنه من جُثَا جهنم** » فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام قال: «**وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله**». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فقد ذكر ﷺ في هذا الحديث العظيم الشأن الذي ينبغي لكل مسلم حفظه وتعقله ما ينجي من الشيطان، وما يحصل للعبد به الفوز والنجاة في دنياه وأخراه[1].

شرح ما يتعلق بالتوحيد

فذكر مثل الموحد والمشرك، فالموحد: كمن عمل لسيده في داره وأدى لسيده ما استعمله فيه.

والمشرك: كمن استعمله سيده في داره فكان يعمل، ويؤدى خراجه وعمله إلى غير سيده فهكذا المشرك يعمل لغير الله في دار الله -تعالى- ويتقرب إلى عدو الله -تعالى- بنعم الله تعالى.

ومعلوم أن العبد من بني آدم لو كان عنده مملوك كذلك لكان أمقت المماليك عنده، وكان أشد شيء غضبًا عليه وطردًا له وإبعادًا،

---

(1) من الوابل الصيب.

وهو مخلوق مثله كلاهما في نعمة غيرهما، فكيف برب العالمين الذي ما بالعبد من نعمة فمنه وحده لا شريك له، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، وهو وحده المنفرد بخلق عبده ورحمته وتدبيره ورزقه ومعافاته وقضاء حوائجه، فكيف يليق به مع هذا أن يعدل به غيره في الحب والخوف والرجاء والحلف والنذر والمعاملة، فيحب غيره كما يحبه أو أكثر. ويخاف غيره ويرجوه كما يخافه أو أكثر، وشواهد أحوالهم، بل وأقوالهم وأعمالهم ناطقة بأنهم يحبون أندادهم من الأحياء والأموات ويخافونهم ويرجونهم ويعاملونهم ويطلبون رضاهم ويهربون من سخطهم أعظم مما يحبون الله -تعالى- ويخافون ويرجون ويهربون من سخطه، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله عز وجل.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ والظلم عند الله -عز وجل- يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا، وهو الشرك به، فإن الله لا يغفر أن يشرك به وديوان لا يترك الله -تعالى- منه شيئًا. وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا فإن الله -تعالى- يستوفيه كله، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه -عز وجل- فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة ونحو ذلك.

بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد وديوان المظالم، فإنه لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله -عز وجل- حرم الجنة على أهله، فلا يدخل الجنة نفسه مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد، فإن التوحيد هو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به.

وأسنان هذا المفتاح هي الصلاة، والصيام والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وبر الوالدين فأي عبد اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد وركب فيه أسنانًا من الأوامر، جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يفتح إلا به، فلم يعقه عن الفتح عائق اللهم، إلا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار، فإنه يحبس عن الجنة حتى يتطهر منها، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده فلا بد من دخول النار ليخرج خبثه فيها، ويتطهر من درنه ووسخه ثم يخرج منها، فيدخل الجنة فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب

قال سبحانه وتعالى: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ** ﴾.

وقال تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾. فعقب دخولها على الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول أي سبب طيبكم قيل لكم ادخلوها.

وأما النار، فإنها دار الخبث في الأقوال، والأعمال، والمآكل والمشارب، ودار الخبيثين فالله -تعالى- يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء لتراكم بعضه على بعض، ثم يجعله في جهنم مع أهله، فليس فيها إلا خبيث.

ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب ولا يشوبه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى، وهي دار العصاة، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض، ودار الخبث المحض[١] .

شرح ما يتعلق بالصلاة

قوله في الحديث: «**وأمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**».

الالتفات المنهى عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله -عز وجل- إلى غير الله تعالى.

---

(1) من الوابل الصيب.

والثاني: التفات البصر، وكلاهما منهي عنه، ولا يزال الله مقبلا على عبده ما دام العبد مقبلا على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله –تعالى– عنه، وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته، فقال: اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد، وفي أثر يقول الله –تعالى: إلى خير مني إلى خير مني، ومثال من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينًا وشمالا، وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم ما خاطبه به، لأن قلبه ليس حاضرًا معه، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان، أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتًا مبعدًا قد سقط من عينيه فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله –تعالى– في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه، فامتلأ قلبه من هيبته، وذلت عنقه له، واستحي من ربه –تعالى– أن يقبل على غيره أو يلتفت عنه، وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وأن ما ببينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله –عز وجل– والآخر ساه غافل، فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالا ولا تقريبًا فما الظن بالخالق عز وجل، وإذا أقبل على الخالق –عز وجل– وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس والنفس مشغوفة بها، ملأى منها،

فكيف يكون ذلك إقبالا، وقد ألهته الوساوس والأفكار، وذهبت به كل مذهب.

والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقر به وأغيظه للشيطان وأشده عليه فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهادات أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمينه وينسيه، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة، فيتهاون بها فيتركها، فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام أقبل عدو الله -تعالى- حتى يخطر بينه وبين نفسه ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة وأيس منها فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله -عز وجل- فيقوم فيها بلا قلب.

فلا ينال من إقبال الله -تعالى- وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه -عز وجل- الحاضر القلب في صلاته فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة، فالصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله -تعالى- بقلبه وقالبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خفة، في نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه: فوجد نشاطًا وراحة وروحًا حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرة عينه ونعيم روحه، وجنة قلبه ومستراحة في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها لا منها، فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا

كما قال أمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ يا بلال، أرحنا بالصلاة، ولم يقل: أرحنا منها.

وقال ﷺ «**جعلت قرة عيني في الصلاة**» فمن جعلت قرة عينه في الصلاة كيف تقر عينه بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها.

فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذي قرة عينه في الصلاة هي التي تصعد، ولها نور وبرهان حتى يستقبل بها الرحمن –عز وجل– فتقول: حفظك الله –تعالى– كما حفظتني.

وأما صلاة المفرط المضيع لحقوقها وحدودها وخشوعها، فإنها تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول ضيعك الله كما ضيعتني، وقد روي في حديث مرفوع رواه بكر بن بشر عن سعيد بن سنان عن أبي الزاهرية عن أبي شجرة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يرفعه أن قال ما من مؤمن يتم الوضوء إلى أماكنه ثم يقوم إلى الصلاة في وقتها، فيؤديها لله –عز وجل– لم ينقص من وقتها وركوعها وسجودها ومعالمها شيئًا إلا رفعت له إلى الله –عز وجل– بيضاء مسفرة يستضيء بنورها ما بين الخافقين حتى ينتهي بها إلى الرحمن عز وجل، ومن قام إلى الصلاة فلم يكمل وضوءها وأَخَّرها عن وقتها، واسترق ركوعها وسجودها ومعالمها رفعت عنه سوداء مظلمة ثم لا تجاوز شعر رأسه تقول: ضيعك الله كما ضيعتني[١].

---

(1) من الوابل الصيب.

ما يتجلى لصاحب القلب العامر بالإيمان من المعاني الجليلة في الصلاة

إذا وقف في الصلاة صاحب القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه، وقف بقلب مخبت خاشع له قريب منه سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوها وجلالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بنعوت جلاله، وصفات كماله، فاجتمع همه على الله وقرت عينه به وأحس بقربه من الله قربًا لا نظير له، ففرغ قلبه له وأقبل عليه بكليته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه؛ فإنه سبحانه أقبل عليه أولا فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلما أقبل على ربه حظي منه إقبال آخر أتم من الأول.

وها هنا عجيبة من عجائب الأسماء والصفات: تحصل لمن تفقه قلبه في معاني القرآن، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه بحيث يرى لكل اسم وصفه موضعًا من صلاته ومحلا منها، فإنه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرب تبارك وتعالى شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال: الله أكبر شاهد كبرياءه، وإذا قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، شاهد بقلبه ربا منزهًا عن كل عيب، سالمِا من كل نقص محمودًا بكل حمد، فحمده يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص تبارك اسمه فلا يذكر على قليل إلى كثرة، ولا على خير إلا أنماه وبارك فيه ولا على آفة إلا أذهبها، ولا

على الشيطان إلا رده خاسئًا داحرًا وكمال الاسم من كمال مسماه، فإذا كان هذا شأن اسمه، الذي لا يضر معه شيء في الأرض، ولا في السماء فشأن المسمى أعلا وأجل، وتعالى جده، أي: ارتفعت عظمته، وجلت فوق كل عظمة وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه على كل سلطان، فتعالى جده أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته أو في ألهيته أو في أفعاله أو في صفاته كما قال مؤمنوا الجن ﴿**وَأَنَّهُ -تعالى- جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا**﴾ فكم في هذه الكلمات من تجل لحقائق الأسماء والصفات على قلبه العارف بها، غير المعطل لحقائقها.

وإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: فقد آوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه، ويباعده عن قربه؛ ليكون أسوأ حالا.

فإذا قال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله «**حمدني عبدي**» فإذا قال: ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ انتظر الجواب بقوله: «**أثنى عليَّ عبدي**» فإذا قال: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ انتظر جوابه بقوله: «**مجدني عبدي**».

فيا لذة قلبه وقرة عينه وسرور نفسه بقول ربه، عبدي ثلاث مرات، فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحًا وسرورا بقول ربها وفاطرها ومعبودها: حمدني عبدي وأثنى علي عبدي، ومجدني عبدي، ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي الله والرب

والرحمن، فشاهد قلبه من ذكر اسم الله تبارك وتعالى إلهًا معبودًا موجودًا مخوفًا لا يستحق العبادة غيره، ولا تبتغي إلا له، قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات.

وخشعت له الأصوات تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وأن من شيء إلا يسبح بحمده: ﴿**وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ**﴾ وكذلك خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق الجن والإنس والطير والوحش والجنة والنار، وكذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع، وألزم العباد الأمر والنهى.

وشاهد من ذكر اسمه ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قيومًا قام بنفسه وقام به كل شيء فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها قد استوى على عرشه، وتفرد بتدبير ملكه فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع والأحياء والإماتة، والتوبة والعزل والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين ﴿**يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه ولا راد لأمره ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير، ويوقت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها قائمًا بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه.

ثم يشهد عند ذكر اسم الرحمن جل جلاله ربا محسنًا إلى خلقه بأنواع الإحسان متحببًا إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمة

وعلمًا، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته والنار أيضًا برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عبادة المؤمنين إلى جنته، ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداء من خليقته.

فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة، فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به؛ فمنهم إليه العبودية ومنه إليهم الرحمة، ومن أخص مشاهد الاسم شهود المصلى نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه، وأهله لعبوديته ومناجاته وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به، فإذا قال: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحق المبين، فيشهد ملكًا قاهرًا قد دانت له الخليفة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز، فيشهد بقلبه ملكًا على عرش السماء مهيمنًا لعزته تعنو الوجوه وتسجد، وإذا لم تعطل صفة حقيقة صفة الملك أطلعه على شهود حقائق الأسماء والصفات التي تعطيلها تعطيل لملكة، وجحد له فإن الملك الحق التام الملك لا يكون إلا حيا قيوما سميعًا بصيرًا مدبرا قادرا متكلمًا آمرا ناهيًا مستويًا على سرير مملكته، يرسل

إلى أقاصي مملكته بأوامره فيرضى على من يستحق الرضا ويثيبه ويكرمه ويدنيه، ويغضب على من يستحق الغضب ويعاقبه ويهينه ويقصيه، فيعذب من يشاء ويرحم من يشاء، ويعطى من يشاء ويقرب من يشاء، ويقصى من يشاء له دار عذاب، وهي النار، وله دار سعادة عظيمة، وهي الجنة .

فمن أبطل شيئًا من ذلك أو جحده، وأنكر حقيقه فقد قدح في ملكه سبحانه وتعالى ونفى عنه كماله وتمامه، وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره فقد أنكر عموم ملكه وكماله، فيشهد المصلي مجد الرب -تعالى- في قوله: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ فإذا قال: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ففيها سر الخلق والأمر والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجل الغايات وأفضل الوسائل، فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجل الوسائل، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في أربعة، وهي التوراة والإنجيل والقرآن والزبور وجمع معانيها في القرآن، وجمع معانيها في المفصل، وجمع معانيها في الفاتحة وجمع معاينها في: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وتضمنت التعبد باسم الرب واسم الله فهو يعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السور ذكر اسم الله والرب والرحمن تطابقًا لأجل الطالب من عبادته وإعانته

وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه، ثم يشهد الداعي بقوله: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس هو إلى شيء أشد فاقة وحاجة منه إليها ألبتة، فإنه محتاج إليه في كل نفس وطرفة عين.

وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتم إلا بالهداية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التفصيل وخلق القدرة على الفعل وإرادته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه على الوجه المرضى المحبوب للرب سبحانه وتعالى وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله.

ولما كان العبد مفتقرًا في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه، ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هدى إلى أصلها دون تفصيلها، أو هدى إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى تمام الهداية فيها؛ ليزداد هدى، وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية، وأمور قد هدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها؛ فهو محتاج إلى الثبات عليها، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فرض الله – سبحانه – عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة، ثم بين أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضوب عليهم، وهم الذين عرفوا الحق، ولم يتبعوه ودون الضالين، وهم الذين

عبدوا الله بغير علم، فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسبيل المنعم عليهم مغايرة لسبيل أهل الباطل كلها علمًا وعملا.

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين يكون كالخاتم له وافق فيه ملائكة السماء، وهذا التأمين من زينة الصلاة كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة واتباع للسنة، وتعظيم أمر الله، وعبودية اليدين وشعار الانتقال من ركن إلى ركن، ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه واستماعه من الإمام بالإنصات وحضور القلب وشهوده.

وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد والثناء والمجد وتلاوة كلام الرب جل جلاله[1]
.

الصلاة المقبولة ومراتب الناس في الصلاة

فالصلاة المقبولة والعمل المقبول أن يصلي العبد صلاة تليق بربه -عز وجل- فإذا كانت صلاة تصلح لربه تبارك وتعالى وتليق به كانت مقبولة.

والمقبول من العمل قسمان:

---

(1) من كتاب الصلاة لشمس الدين بن القيم رحمه الله، وإن شئت المزيد فراجع بقية هذا المبحث في هذا الكتاب ترَ العجب العجاب.

أحدهما: أن يصلي العبد، ويعمل سائر الطاعات، وقلبه متعلق بالله -عز وجل- ذاكر لله -عز وجل- على الدوام، فأعمال هذا العبد تعرض على الله -عز وجل- حتى تقف قبالته فينظر الله -عز وجل- إليها، فإذا نظر إليها رآها خالصة لوجهه مرضية قد صدرت عن قلب سليم مخلص محب لله -عز وجل- متقرب إليه أحبها ورضيها وقبلها.

والقسم الثاني: أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة وينوي بها الطاعة والتقرب إلى الله، فأركانه مشغولة بالطاعة وقلبه لاهٍ عن ذكر الله، وكذلك سائر أعماله، فإذا رفعت أعمال هذا إلى الله -عز وجل- لم تقف تجاهه، ولا يقع نظره عليها، ولكن توضع حيث توضع دواوين الأعمال حتى تعرض عليه يوم القيامة؛ فتميز، فيثيبه على ما كان له منها، ويُرَدُّ عليه ما لم يرد وجهه به منها، فهذا قبوله لهذا العمل إثابته عليه بمخلوق من مخلوقاته من القصور والأكل والشرب والحور العين.

وإثابة الأول رضا العمل لنفسه ورضاه عن معاملة عامله وتقريبه منه وإعلاء درجته ومنزلته، فهذا يعطيه بغير حساب، فهذا لون والأول لون.

والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

إحداها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثانية: من يحافظ على مواقيتها وحدودها، وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالثة: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه؛ لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابعة: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها؛ لئلا يضيع شيئًا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامسة: من إذا قام إلى الصلاة، قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه -عز وجل- ناظرًا بقلبه إليه مراقبًا له ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه -عز وجل- قرير العين.

فالقسم الأول: معاقب. **والثاني**: محاسب. **والثالث**: مكفر عنه. **والرابع**: مثاب. **والخامس**: مقرب من ربه؛ لأن له نصيبًا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه -عز وجل- في الآخرة، وقرت عينه به في الدنيا،

ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله -تعالى- تقطعت نفسه على الدنيا حسرات؛ وقد روى أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل: ارفعوا الحجب، فإذا التفت قال أرخوها، وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله -عز وجل- إلى غيره، فإذا التفت إلى غيره أرخي الحجاب بينه وبين العبد، فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا وأراه إياها في صورة المرأة، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله -تعالى- وبين ذلك القلب، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب، فإن فر إلى الله -تعالى- وأحضر قلبه فر الشيطان، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة [1].

السبب في حضور القلب في الصلاة

وبيان أنواع القلوب:

إنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه -عز وجل- إذا قهر شهوته وهواه، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة وأسره الهوى، وجد الشيطان فيه مقعدًا تمكن فيه، كيف يخلص من الوساوس والأفكار.

---

(1) من الوابل الصيب.

والقلوب ثلاثة:

قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قد استنار بنور الإيمان، وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهواء؛ فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنه من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق؛ ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق، وليس السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله -تعالى- له أتم من حراسة السماء والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان، وفيه أنوارها، فهو حقيقي أن يحرس ويحفظ من كيد العدو، فلا ينال منه شيئًا إلا خطفه[1].

---

(1) من الوابل الصيب.

شرح ما يتعلق بالصيام

قوله ﷺ: «**وأمركم بالصيام؛ فإن مثل ذلك مثل رجل في عصابة، معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه، وإن ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك**».

إنما مثَّل ﷺ ذلك بصاحب الصرة التي فيها المسك؛ لأنها مستورة عن العيون مخبوءة تحت ثيابه كعادة حامل المسك، وهكذا الصائم صومه مستور عن مشاهدة الخلق لا تدركه حواسهم.

والصائم: هو الذي صامت جوارحه عن الآثام، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور، وبطنه عن الطعام والشراب، وفرجه عن الرفث، فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه، وإن فعل لم يفعل ما يفسد صومه، فيخرج كلامه كله نافعًا صالحًا، وكذلك أعماله فهي بمنزلة الرائحة التي يشمها من جالس حامل المسك، كذلك من جالس الصائم انتفع بمجالسته.

وأمن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم، هذا هو الصوم المشروع لا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب.

ففي الحديث الصحيح: «**من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**» وفي الحديث: «**رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش**».

فالصوم هو صوم الجوارح عن الآثام، وصوم البطن عن الشراب والطعام، فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده فهكذا الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته، فتصيره بمنزلة من لم يصم.

وقد اختلف في وجود هذه الرائحة من الصائم؛ هل هي في الدنيا أو في الآخرة على قولين: وفصل النزاع في المسألة أن يقال: حيث أخبر النبي ﷺ بأن ذلك الطيب يكون يوم القيامة؛ لأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال وموجباته من الخير والشر، فيظهر للخلق طيب ذلك الخلوف على المسك، كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك، وكما تظهر فيه السرائر، وتبدو على الوجوه، وتصير علانية ويظهر فيه قبح رائحة الكفار وسواد وجوههم وحيث أخبر بأن ذلك حين يخلف وحين يمسون، فلأنه وقت ظهور أثر العبادة، ويكون حينئذ صيبها على ريح المسك عند الله -تعالى- وعند ملائكته، وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد، فرب مكروه عند الناس محبوب عند الله -تعالى- وبالعكس، فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم والله -تعالى- يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته، فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد وصار علانية وهذا سائر آثار الأعمال من الخير والشر، وإنما يكمل ظهورها ويصير علانية في الآخرة.

وقد يقوى العمل، ويتزايد حتى يستلزم ظهور بعد أثره على العبد في الدنيا في الخير والشر كما هو مشاهد بالبصر والبصيرة.

قال ابن عباس: إن للحسنة ضياء في الوجه ونورًا في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه وظلمة في القلب ووهنًا في البدن ونقصًا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق، وقال عثمان بن عفان: ما عمل رجل عملا إلا ألبسه الله -تعالى- بردائه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وهذا أمر معلوم يشترك فيه وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم، حتى إن الرجل الطيب البر لتشم منه رائحة طيبة، وإن لم يمس طيبًا فيظهر طيب رائحة روحه على بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس والمزكوم الذي أصابه الهوى لا يشم لا هذا ولا هذا، بل زكامه يحمله على الإنكار، فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب [١].

شرح ما يتعلق بالصدقة

قوله: «**وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم**».

هذا أيضًا من الكلام الذي برهانه وجوده ودليله وقوعه، فإن للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم بل من كافر، فإن الله -تعالى- يدفع بها عنه أنواعًا من البلاء، وهذا

(1) من الوابل الصيب المختصر.

أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض كلهم مقرون به؛ لأنهم جربوه.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**إن الصدقة تطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء، وكما أنها تطفئ غضب الرب تبارك وتعالى، فهي تطفئ الذنوب الخطايا كما يطفئ الماء النار**».

وفي الترمذي عن معاذ بن جبل قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير فقال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين**» ثم تلا ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾ وفي بعض الآثار باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة.

وفي تمثيل النبي ﷺ ذلك بمن قدم؛ ليضرب عنقه، فافتدى نفسه منهم بماله كفاية، فإن الصدقة تفدي العبد من عذاب الله تعالى، فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه فتجيء الصدقة تفديه من العذاب، وتفكه منه.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما خطب النساء يوم العيد: «**يا معشر النساء، تصدقن، ولو من حُلِيِّكُنْ، فإني رأيتكن**

أكثر أهل النار» وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار.

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلى النار تلقاء وجهه فاتقوا النار، ولو بشق تمرة**».

وفي حديث أبي ذر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار قال: «**الإيمان بالله**» قلت: يا نبي الله، مع الإيمان عمل قال: «**أن ترضخ مما خولك الله، أو ترضخ مما رزقك الله**» قلت: يا نبي الله، فإن كان فقيرًا لا يجد ما يرضح قال: «**يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**» قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قال: «**فليعن الأخرق**» قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع قال: «**فليعن مظلومًا**» قلت: يا رسول الله، أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مظلومًا. قال: «**ما تريد أن تترك في صاحبك من خير ليمسك أذاه عن الناس**» قلت يا رسول الله أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة قال: «**ما من مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى أدخلته الجنة**» ذكره البيهقي في كتاب شعب الإيمان.

وقال عمر بن الخطاب: ذكر لي أن الأعمال تتباهى؛ فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.

وقد قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾.

وكان عبد الرحمن بن عوف - سعد بن أبي وقاص - يطوف بالبيت، وليس له دأب إلا هذه الدعوة: رب قِنِي شحَّ نفسي، رب قِنِي شحَّ نفسي، فقيل له: أما تدعو بغير هذه الدعوة، فقال: إذا وقيت شح نفسي فقد أفلحت.

والفرق بين الشح والبخل: أن الشح هو شدة الحرص على الشيء والإخفاء في طلبه والاستقصاء في تحصيله وجشع النفس عليه، والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامن في النفس فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقى شره، وذلك هو المفلح: ﴿ **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ والسخي قريب من الله، ومن خلقه وأهله، وقريب من الجنة، وبعيد عن النار، والبخيل بعيد من الله -تعالى- بعيد من خلقه بعيد من الجنة قريب من النار، فجود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده.

ويظهر عيب المرء في الناس ويستره عنهم جميعًا
تغطَّ بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب فالسخاء
وقارن إذا قارنت حرًا فإنما يزين ومن يرى بالفتى قرناؤه
واقلل إذا ما استطعت قولا إذا قل قول المرء قل
إذا قل مال المرء قل وضاقت عليه أرضه
وأصبح لا يدري وإن كان أقدامه خير له أم وراؤه
إذا المرء لم يختر صديقًا فناديه في الناس هذا جزاؤه

وحد السخاء: بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل ذلك إلى مستحقه بقدر الطاقة.

وإذا كان السخاء محمودًا، فمن وقف على حده سمي كريمًا، وكان للحمد مستوجبًا، ومن قصر عنه كان بخيلا، وكان للندم مستوجبًا.

والسخاء نوعان:

فأشرفهما: سخاؤك عما بيد غيرك.

والثاني: سخاؤك ببذل ما في يدك؛ فقد يكون الرجل من أسخى الناس، وهو لا يعطيهم شيئًا؛ لأنه سخى عما في أيديهم، وهذا معنى قول بعضهم: السخاء أن تكون بمالك متبرعًا، وعن مال غيرك متورعًا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: أوحى الله إلى إبراهيم ﷺ: أتدري لِمَ أتخذتك خليلا؟ قال: لا. قال: لأني رأيت العطاء أحب إليك من الأخذ.

وهذه صفة من صفات الرب جل جلاله، فإنه يعطي ولا يأخذ، ويطعم ولا يطعم، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، وأحب الخلق إليه من اتصف بمقتضيات صفاته، فإنه كريم يحب الكريم من عباده، وعالم يحب العلماء، وقادر يحب الشجعان، وجميل يحب الجمال. وفي الصحيح: أن الله –تعالى– وتر يحب الوتر، وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستير يحب من يستر على عباده، وعفو يحب من يعفو عنهم، وغفور يحب من يغفر لهم، ولطيف يحب اللطيف من عباده، ويبغض اللفظ الغليظ القاسي الجعظري الجوَّاظ، ورفيق يحب الرفق، وحليم يحب الحلم، وبر يحب البر وأهله، وعدل يحب العدل، وقابل المعاذير يحب من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجودًا وعدما فمن عفا عفا عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن صفح عنهم صفح عنه، ومن تتبع عورتهم تتبع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن شاق شاق الله –تعالى– به، ومن مكر مكر به، ومن خادع خادعه، ومن عامل خلقه بصفة عاملة الله –تعالى– بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة؛ فالله –

تعالى- بعبده على حسب ما يكون العبد خلقه، ولهذا جاء في الحديث: «**من ستر مسلمًا ستره الله -تعالى- في الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله -تعالى- عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله -تعالى- حسابه، ومن أقال نادمًا أقال الله -تعالى- عثرته، ومن أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله -تعالى- في ظل عرشه**» لأنه لما جعله في ظل الإنظار والصبر ونجاة من حر المطالبة وحرارة تكلف الأداء مع عسرته وعجزه نجاه الله -تعالى- من حر الشمس يوم القيامة إلى ظل العرش.

وكذلك الحديث الذي في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته يومًا: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف بيته، فكما تدين تدان، وكن كيف شئت، فإن الله -تعالى- لك كما تكون أنت له ولعباده**».

ولما أظهر المنافقون الإسلام، وأسروا الكفر أظهر الله -تعالى- لهم يوم القيامة نورًا على الصراط، وأظهر لهم أنهم يجوزون الصراط، وأسر لهم أن ينطفئ نورهم، وأن يحال بينهم وبين الصراط من جنس أعمالهم، وكذلك من يظهر للخلق خلاف ما يعلمه الله فيهن، فإن الله -تعالى- يظهر له في الدنيا والآخرة أسباب الفلاح والنجاح

والفوز ويبطن له خلافها، وفي الحديث: «**مَن راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به**».

والمقصود: أن الكريم المتصدق يعطيه الله ما لا يعطي البخيل الممسك ويوسع عليه في ذاته وخلقه ورزقه ونفسه وأسباب معيشته جزاء له من جنس عمله(١) .

شرح ما يتعلق بذكر الله تعالى

وقوله ﷺ: «**وأمركم أن تذكروا الله -تعالى- فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى إلى حصن حصين، فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى**» فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقيًا بالعبد أن لا يفتر لسانه عن ذكر الله -تعالى- وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله -تعالى- أخنس عدو الله -تعالى- وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع(٢) وكالذباب، ولهذا سمي الوسواس الخناس أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله -تعالى- خنس أي: كُفَّ وانقبض، قال ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله -تعالى- خنس.

---

(1) من الوابل الصيب باختصار.

(2) الوصع طائر أصغر من العصفور.

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة أنه بلغه عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما عمل آدمي عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل**» وقال معاذ قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم** » قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**ذكر الله عز وجل**».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جمدان، فقال: «**سيروا هذا جمدان سبق المفردون**» قيل: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**».

وفي السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله -تعالى- فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة**».

وفي رواية الترمذي: ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم.

وفي صحيح مسلم عن الأغر أبي مسلم: قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يقعد**

قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وفي الترمذي عن عبد الله بن بشر أن رجلا قال: يا رسول الله، إن أبواب الخير كثيرة، ولا أستطيع القيام بكلها، فأخبرني بما شئت أتشبث به، ولا تكثر علي فأنسى.

وفي رواية: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، وأنا قد كبرت فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله تعالى**».

وفي الترمذي أيضًا عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ سئل: أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرا**» قيل يا رسول الله، ومِن الغازي في سبيل الله؟ قال: «**لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى يتكسر ويختضب دمًا كان الذاكر لله -تعالى- أفضل منه درجة**».

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في**

ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة».

وفي الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة قال: «**حلق الذكر**».

وفي الترمذي أيضًا عن النبي ﷺ عن الله -عز وجل- أنه يقول: «**إن عبدي كُلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مُلاقٍ قِرْنَه**».

وهذا الحديث، وهو فصل الخطاب في التفضيل بين الذاكر والمجاهد، فإن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى، فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون.

وقال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معًا؛ ليكونوا على رجاء من الفلاح.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ** ﴾ أي: كثيرًا، وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** ﴾ ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر

الله -عز وجل- كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله.

وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله -تعالى- كذا وكذا سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته أعظم مما حصله.

وذكر البيهقي عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من ساعة تمر بابن آدم لا يذكر الله -تعالى- فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة**».

وذكر عن معاذ بن جبل يرفعه أيضًا: ليس تحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله -عز وجل- فيها.

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا أمرا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو ذكر الله عز وجل**».

وعن معاذ بن جبل قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحب إلى الله -عز وجل- قال: «**أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل**».

وقال أبو الدرداء رضي الله -تعالى- عنه لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل.

وذكر البيهقي مرفوعًا من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله عز وجل، وما من شيء أنجى من عذاب الله -**

عز وجل– من ذكر الله عز وجل» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: «**ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع**».

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ فإذا ذكر جلاه.

وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراً كما على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ وأسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقًا، ولا ينكر باطلا، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب، ويعميان بصره، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر.

هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين، وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي، فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطًا، ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه، ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرَّط فيه، وفسر

بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه فإن وجده كذلك فليبعد عنه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله -عز وجل- واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره، فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت. وفي المسند مرفوعًا: «**أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون**»[١] .

---

(1) من الوابل الصيب.

غراس الجنة [1]

والذكر هو غراس الجنة، فقد روى الترمذي في جامعه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت ليلة أسري بي إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**». قال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود.

وفي الترمذي من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة**». قال الترمذي: حديث حسن صحيح[2].

عظم ما رتب على الذكر من الفضل والعطاء

والعطاء والفضل الذي رتب على الذكر لم يرتب على غيره من الأعمال؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « **من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت**

(1) هذه بعض فوائد الذكر، فإن أردتَ المزيد فعليك بمراجعة الوابل الصيب.

(2) من الوابل الصيب.

أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس**».

وفي الترمذي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاثة أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار، ومن قالها أربعًا أعتقه الله من النار**».

وفيه عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولا كان على الله أن يرضيه**»

وفي الترمذي من دخل السوق فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف**

ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»(١) .

الأمان من نسيان الله تعالى

دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره وضيع مصالحه، فإنه يفسد ولا بد، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها وعطل مراعاتها، وترك القيام عليها بما يصلحها، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان. وهذا هو الذي صار أمره فرطًا فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك. ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله – تعالى– واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطبًا به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غناء له عنها ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش وبمنزلة اللباس في الحر والبرد وبمنزلة

---

(1) من الوابل الصيب.

السكن في شدة الشتاء والسموم، فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لا بد منه، وقد يعقبه صلاح الأبد.

وأما هلاك القلب والروح، فهلاك لا يرجى معها صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسى الله -تعالى- أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى** ﴾ أي تنسى في العذاب كما نسيت آياتي فلم تذكرها ولم تعمل بها، وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذي أنزله، وهو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، وهو المراد يتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ونعمه، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، فإن الذكر في الآية إما مصدر مضاف إلى الفاعل أو مضاف إضافة الأسماء المحضة أعرض عن كتابي، ولم يتله، ولم يتدبره، ولم يعمل به، ولا فهمه، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذبًا فيها، والضنك والضيق والشدة والبلاء ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ.

والصحيح أن تتناول معيشته في الدنيا وحاله في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الدارين، وهو شدة وجهد وضيق، والآخرة ينسى في العذاب، وهذا عكس أهل السعادة والفلاح، فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة، ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب.

قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ فهذا في الدنيا ثم قال: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ فهذا في البرزخ والآخرة.

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ فهذه أربعة مواضع ذكر -تعالى- فيها أنه يجزئ المحسن بإحسانه جزائين جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة، فالإحسان له جزاء معجل، ولا بد والإساءة لها جزاء معجل، لا بد ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن من انشراح صدره في انفساح قلبه وسروره ولذاته بمعاملة ربه -عز وجل- وطاعته، وذكره ونعيم روحه بمحبته[1] وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم. بما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يجازى به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازته وغمه وهمه وحزنه وخوفه [٢] وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب

([1]) قد سقط من هنا جواب "لو".

([2]) جواب قوله: (وما يجازى به المسيء) يعلم من القرينة في الجملة.

فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة.

والإقبال على الله والإنابة إليه، والرضاء به وعنه، وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ما شاء الله!

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾.

وعلم الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما مكان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: ما أطيب ما فيها قال : محبة الله -تعالى- ومعرفته وذكره، أو نحو هذا.

فمحبة الله -تعالى- ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإراداته، هو جنة الدنيا والنعيم الذين لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين.

وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وإنما يصدق هذا من في قلبه حياة، وأما ميت القلب فيوحشك ما له ثم فاستئنس بغيبته ما أمكنك، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك، وترحل عنه بقلبك وفارقه بسرك، ولا تشتغل به عما هو أولى بك.

واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله عز وجل، وانقطاعك عنه وضياع وقتك وضعف عزيمتك وتفرق همك، فإذا بليت بهذا – ولا بد لك منه – فعامل الله –تعالى– فيه واحتسب عليه ما أمكنك، وتقرب إلى الله –تعالى– بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به متجرًا لك لا تجعله خسارة، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره فاجتهد أن تأخذه معك، وتسير به، فتحمله ولا يحملك، فإن أبى، ولم يكن في سيره مطمع، فلا تقف معه، ودعه ولا تلتفت إليه، فإن قاطع الطريق ولو كان من كان فانْجُ بقلبك، وضِنَّ بيومك وليلتك لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة، فتؤخذ أو يطلع الفجر ثم [1] أني لك بلحقاهم [2].

أكرم الخلق على الله تعالى

---

(1) جواب قوله (وما يجازي به المسيء) يعلم من القرنية في الجملة.

(2) من الوابل الصيب باختصار.

أكرم الخلق على الله -تعالى- من المتقين من لا يزال لسانه رطبًا بذكره، فإنه اتقاه في أمره ونهيه وجعل ذكره شعاره، فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار وهذا هو الثواب والأجر.

والذكر يوجب له القرب من الله -عز وجل- والزلفى لديه، وهذه هي المنزلة، وعمال الآخرة على قسمين:

منهم من يعمل على الأجر والثواب، ومنهم يعمل على المنزلة والدرجة فهو ينافس غيره في الوسيلة والمنزلة عند الله -تعالى- ويسابق إلى القرب منه.

وقد ذكر الله -تعالى- النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** *﴾ فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب ثم قال: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ** ﴾

فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب، ثم قال: ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ فقيل: هذا عطف على الخبر من ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم، ثم أخبر عنهم أن لهم أجرًا، وهو قوله تعالى: ﴿ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور، أنهم صديقون وشهداء، فهذه هي المرتبة والمنزلة.

وقيل: تم الكلام عند قوله -تعالى- ﴿ **الصِّدِّيقُونَ** ﴾ ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال: ﴿ **وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ**

وَنُورُهُمْ ﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان، ثم المؤمنين الذي قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتلؤوا منه فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل والأولون أهل البر والإحسان، ولكن هؤلاء أكمل صديقيه منهم: ثم ذكر الشهداء، وأنه -تعالى- يجري عليهم رزقهم ونورهم؛ لأنهم لما بذلوا نفوسهم لله أثابهم الله عليها أن جعلهم أحياء عنده يرزقون، فيجري عليهم رزقهم ونورهم، فهؤلاء السعداء.

ثم ذكر الأشقياء فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾.

وذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله -تعالى- قال: قال موسى عليه السلام: يا رب، أي خلقك أكرم عليك؟ قال: الذي لا يزال لسانه رطبًا بذكري. قال: يا رب، فأي خلقك أعلم؟ قال: الذي يلتمس إلى علمه علم غيره. قال: يا رب، أي خلقك أعظم ذنبًا؟ قال الذي يتهمني. قال: يا رب، وهل يتهمك أحد؟ قال: الذي يستخيرني، ولا يرضى بقضائي.

وذكر أيضًا عن ابن عباس قال: لما وفد موسى عليه السلام إلى طور سيناء قال: يا رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني.

وقال كعب: قال موسى عليه السلام: يا رب، أقريب أنت، فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فقال تعالى: يا موسى، أنا جليس من

ذكرني. قال: إني أكون على حال أجلك عنها. قال: ما هي؟ قال: عند الغائط والجنابة. قال: أذكرني على كل حال[1] .

وقال عبيد بن عمير: تسبيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجري معه ذهبًا.

وقال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: سيعلم الجمع من أولى بالكرم، أين الذي كانت ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾ قال: فيقومون، فيتخطون رقاب الناس، قال: ثم ينادي منادٍ: وسيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الذين كانت ﴿ **لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ قال: فيقومون، فيتخطون رقاب الناس. قال: ثم ينادي مناد: وسيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الحمادون لله على كل حال، قال: فيقومون وهم كثير، ثم يكون التنعيم والحساب فيمن بقي، وأتى رجل أبا مسلم الخولاني، فقال له: أوصني يا أبا مسلم. قال: اذكر الله -تعالى- تحت كل شجرة ومدرة. فقال: زدني. فقال: اذكر الله -تعالى- حتى يحسبك الناس من ذكر الله -تعالى- مجنون. قال: وكان أبو مسلم يكثر ذكر الله -تعالى- فرآه رجل، وهو يذكر الله -تعالى-

---

(1) وذكر الله بالقلب في هذه الحال لا يكره بل مستحب لأنه لا بد للقلب من ذكر، وأما الذكر باللسان في هذه الحال فليس مما شرع لنا، ولا ندبنا إليه رسول الله ﷺ، ولا نُقلَ عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم. اهـ. بالمعنى من الوابل الصيب.

فقال: أمجنون صاحبكم هذا، فسمعه أبو مسلم فقال: ليس هذا بالجنون يا ابن أخي، ولكن هذا ذو الجنون[١].

أصل موالاة الله عز وجل

الذكر أصل مولاة الله -عز وجل- ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه -عز وجل- حتى يحبه، فيواليه ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه، قال الأوزاعي: قال حسان بن عطية: ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو مَن يذكره، فهذه المعاداة سببها الغفلة، ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر الله، ويكره مَن يذكره، فحينئذ يتخذه عدوًا كما اتخذ الذاكر وليا[٢].

سبب صلاة الله -عز وجل- على عبده

الذكر يوجب صلاة الله -عز وجل- وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله -تعالى- عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾.

---

(1) من الوابل الصيب باختصار.

(2) من الوابل الصيب.

فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هو سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم؟ وأي شر لم يندفع عنهم؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم! لماذا حرموا من خيره وفضله؟ وبالله التوفيق[١] .

مجالس الملائكة

مجالس الذكر مجالس الملائكة، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله -تعالى- فيه.

كما أخرج في الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**إن لله ملائكة** (فضلا عن كتاب الناس) [٢] **يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله -تعالى- تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنياء، قال: فيسألهم ربهم -تعالى- وهو أعلم بهم ما يقول عبادي قال: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك، قال: فيقول: هل رأوني. قال: فيقولون لا والله، ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميدًا**

(1) معناه: أنهم ملائكة زائدون على الحفظة.

(2) من الوابل الصيب.

وتمجيدًا وأكثر لك تسبيحًا. قال: فيقول: ما يسألوني؟ قالوا: يسألونك الجنة. قال: ويقول: هل رأوها. قال: ويقولون: لا، والله يا رب، ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة. فيقول: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون من النار، قال: يقول: وهل رأوها. قال: يقولون: لا والله يا رب، ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال: فيقول: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

فلهم نصيب من قوله: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ** ﴾ فهكذا المؤمن مبارك أين حل، والفاجر مشؤم أين حل، فمجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة، مجالس الشياطين، وكل مضاف إلى شكله وأشبه، وكل امرئ يصير إلى ما يناسبه [1] .

مباهاة اللهِ بالذَّاكِرِينَ مَلَائِكَتَه

الله –عز وجل– يباهي بالذاكرين ملائكته:

كما روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله –تعالى– قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله، ما أجلسنا

---

(1) من الوابل الصيب.

إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله -تعالى- ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ علينا بك. قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟**» قالوا: والله، ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل، فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة**».

فهذه المباهات من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال[1] .

المقصود بالأعمال الشرعية

جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾.

قيل المصدر مضاف إلى الفاعل أي: لأذكرك بها.

وقيل مضاف إلى المذكور أي: لتذكروني بها، واللام على هذا لام التعليل.

وقيل هي اللام الوقتية أي: أقم الصلاة عند ذكري كقوله ﴿ **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ** ﴾ وقوله ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ**

---

(1) من الوابل الصيب.

الْقِيَامَةِ ﴾ وهذا المعنى يراد بالآية لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر؛ لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف والذكر مصدر إلا أن يقدر زمان محذوف أي عند وقت ذكرى وهذا محتمل.

والأظهر أنها لام التعليل أي أقم الصلاة لأجل ذكرى، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه، فذكر الله -تعالى- سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾.

فقيل: المعنى: أنكم في الصلاة تذكرون الله، وهو ذاكر من ذكره، ولذكر الله -تعالى- أياكم أكبر من ذكركم أياه، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ قال هو قوله تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ فذكر الله -تعالى- لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه ولذكر الله أكبر من كل شيء، وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾.

ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق**...» الحديث.

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول: الصحيح: أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصدان عظيمان: وأحدهما: أعظم من الآخر؛ فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر.

وفي السنن عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى**» رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح [1].

أفضل أهل كل عمل صالح

أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله عز وجل.

فأفضل الصوام أكثرهم ذكرًا لله -عز وجل- في صومهم.

وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكرًا لله عز وجل.

وأفضل الحجاج أكثرهم ذكرًا لله عز وجل، وهكذا سائر الأحوال.

---

(1) من الوابل الصيب.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثًا مرسلا في ذلك أن النبي ﷺ سئل: أي أهل المسجد خير؟ قال: «**أكثرهم ذكر الله عز وجل**»، قيل: أي الجنازة خير؟ قال: «**أكثرهم ذكر الله عز وجل**»، قيل: فأي المجاهدين خير؟ قال «**أكثرهم ذكر الله عز وجل**»، قيل: فأي الحجاج خير؟ قال: «**أكثرهم ذكرًا لله عز وجل**» قيل، وأي العباد خير؟ قال: «**أكثرهم ذكرًا لله عز وجل**».

قال أبو بكر: ذهب الذاكرون بالخير كله. وقال عبيد بن عمير: إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه، وبخلتم على المال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر الله عز وجل[1].

إدامة الذكر تنوب عن كثير من الطاعات

إدامة الذكر تنوب عن التطوعات، وتقوم مقامها؛ سواء كانت بدنية أو مالية أو بدنية مالية كحج التطوع.

وقد جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل أموالهم يحجون بها، ويعتمرون ويجاهدون، فقال: «**ألا أعلمكم شيئًا تدركون به سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم**»، قالوا: بلى يا رسول

---

(1) من الوابل الصيب.

الله، قال: «**تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة**» الحديث متفق عليه.

فجعل الذكر عوضًا لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر، فلما سمع أهل الدثور بذلك عملوا به فازدادوا إلى صدقاتهم وعبادتهم بمالهم التعبد بهذا الذكر، فحازوا الفضيلتين فنافسوا الفقراء، وأخبروا رسول الله ﷺ بأنهم قد شاركوهم في ذلك، وانفردوا عنهم بما لا قدرة لهم عليه، فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[١] .

آثار ذكر الله في اليسر والأمن والقوة

ذكر الله -عز وجل- يسهل الصعب وييسر العسير ويخفف المشاق، فما ذكر الله -عز وجل- على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذكر الله -تعالى- هو الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر والفرج بعد الغم والهم.

يوضحه أن ذكر الله -عز وجل- يذهب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع له من ذكر الله عز وجل، إذ يحسب ذكره يجد الأمن، ويزول خوفه حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه حتى

---

(1) من الوابل الصيب.

كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا، والله المستعان.

والذكر يعطي الذاكر قوة، حتى أنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه.

وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرا عجيبًا؛ فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر.

وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا، وقد علم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين، ويحمدا ثلاثًا وثلاثين ويكبرا أربعًا وثلاثين لما سألته الخادم وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمها ذلك، وقال إنه خير لكما من خادم، فقيل: إن مَنْ دوام على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -تعالى- يذكر أثرًا في هذا الباب ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا، كيف نحمل عرشك، وعليه عظمتك وجلالك ووقارك؟ قال: لذلك خلقتكم، فأعادوا عليه ذلك مرارًا، فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما قالوا، حملوه، حتى رأي ابن أبي الدنيا قد ذكر هذا الأمر بعينه عن الليث بن سعد عن معاوية بن صالح قال: حدثنا مشيختنا أنه بلغهم أن أول ما خلق الله -عز وجل- حين كان عرشه على الماء

حملة العرش، قالوا: ربنا، لِمَ خلقتنا؟ قال: خلقتكم لحمل عرشي. قالوا: ربنا، ومَن يقوى على حمل عرشك، وعليه عظمتك وجلالك ووقارك؟! قال: لذا خلقتكم، فأعادوا عليه ذلك مرارا، فقال لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحملوه.

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق والدخول على الملوك ومَن يُخاف، وركوب الأهوال، ولها أيضًا تأثير في دفع الفقر كما روى ابن أبي الدنيا عن الليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن أسد بن وداعة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله مائة مرة في كل يوم لم يصبه فقر أبدا**» وكان حبيب بن سلمة يحب إذا لقي عدواً أو ناهض حصنًا قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنه ناهض يومًا حصنًا للروم فانهزم، فقالها المسلمون وكبروا فانهدم الحصن[١] .

الأمان من النفاق

كثرة ذكر الله –عز وجل– أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل، قال الله –عز وجل– في المنافقين ﴿ **وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾.

قال كعب: من أكثر ذكر الله –عز وجل– برئ من النفاق، ولهذا – والله أعلم – ختم الله سورة المنافقون بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ**

---

(1) من الوابل باختصار وتصرف يسير.

يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ فإن في ذلكم تحذيرًا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله -عز وجل- فوقعوا في النفاق.

وسئل بعض الصحابة -رضي الله عنهم- عن الخوارج: منافقون قالوا: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا، فهذا من علامة النفاق؛ قلة ذكر الله عز وجل، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله -عز وجل- أكرم من أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل[١] .

السبب في إنقاذ العبد نفسه من أعدائه الشياطين

حاجة كل واحد بل ضرورته إلى معرفة هذه الفائدة عظيمة، وهي أن الشياطين قد احتوشت العبد، وهم أعداؤه، فما ظنك برجل قد احتوشته أعداؤه المحنقون عليه غيظًا، وأحاطوا به، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل.

وفي هذا الحديث العظيم الشريف القدر الذي ينبغي لكل مسلم أن يحفظه، فنذكره بطوله لعموم فائدته وحاجة الخلق إليه، وهو حديث سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا، وكنا في صفة بالمدينة فقام علينا فقال: «**إني رأيت البارحة عجبًا:**

---

(1) من الوابل الصيب.

رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه.

ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوءه، فاستنقذه من ذلك.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله -عز وجل- فرد الشياطين عنه.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته، فاستنقذته من أيديهم.

ورأيت رجلاً من أمتي يتلهب - وفي رواية - يلهث عطشًا كلما دنا من حوض منع وطرد، فجاءه صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه.

ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوسًا حلقًا كلما دنا إلى حلقة طرد، فجاءه غسله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي.

ورأيت رجلاً من أمتي بين يده ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن يساره ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحير فيها، فجاءه حجه وعمره فاخرجاه من الظلمة، وأدخلاه في النور.

ورأيت رجلاً من أمتي يتقي بيده وهج النار وشرره، فجاءته صدقته، فصارت سترة بينه وبين النار، وظلت على رأسه.

ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين، ولا يكلمونه، فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المسلمين، إنه كان وصولا لرحمه، فكلموه، فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية، فجاءه أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من أيديهم، وداخله في ملائكة الرحمة.

ورأيت رجلاً من أمتي جاثيًا على ركبتيه وبينه وبين الله –عز وجل– حجاب فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل

ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله –عز وجل– فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه.

ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه.

ورأيت رجلاً من أمتي قائما على شفير جهنم، فجاءه رجاؤه في الله –عز وجل– فاسنقذه من ذلك ومضى.

ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله –عز وجل– فاستنقذته من ذلك.

ورأيت رجلاً من أمتي قائمًا على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله -عز وجل- فسكن رعدته ومضى.

ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط ويحبو أحيانًا، ويتعلق أحيانًا فجاءته صلاته علي، فأقامته على قدميه وأنقذته.

ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة، فغلق الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة» رواه الحافظ أبو موسى الديني في كتاب (الترغيب في الخصال المنجية والترهيب من الخلال المردية) وبنى كتابه عليه وجعله شرحًا له، وقال: هذا حديث حسن جدًا رواه عن سعيد بن المسيب عمرو بن آزر وعلي بن زيد بن جدعان وهلال أبو جبلة.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يعظم شأن هذا الحديث.

بلغني عنه أنه كان يقول شواهد الصحة عليه.

والمقصود منه قوله ﷺ: «**ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله -عز وجل- فطرد الشيطان عنه**».

فهذا مطابقاً لحديث الحارث الأشعري الذي شرحناه في هذه الرسالة.

وقوله: «**وأمركم بذكر الله -عز وجل- وأن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو فانطلقوا في طلبه سراعًا وانطلق حتى أتى حصنًا**

حصينًا، فاحرز نفسه فيه» فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل.

وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «**من قال إذا خرج من بيته: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كفيت وهديت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان، فيقول الشيطان الآخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي**»[١]

.

وقد تقدم قوله ﷺ: «**من قال في يوم مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كانت له حرزًا من الشيطان حتى يمسى**».

وذكر سفيان عن أبي الزبير عن عبد الله بن ضمرة عن كعب قال: «**إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله. قال: الملك هديت، وإذا قال: توكلت على الله، قال الملك: كفيت، وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله قال: الملك حفظت. فيقول الشياطين بعضهم لبعض: ارجعوا ليس لكم عليه سبيل كيف لكم بمن كفي وهدي وحفظ**».

وقال أبو خلاد المصري: من دخل في الإسلام دخل في حصن، ومن دخل في المسجد فقد دخل في حصنين، ومن جلس في حلقة يذكر الله -عز وجل- فيها، فقد دخل في ثلاثة حصون.

---

(1) رواه أبو داود والنسائي والترمذي، وقال: حديث حسن.

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني عن النبي ﷺ قال: «**إذا وضع العبد جنبه على فراشه فقال: بسم الله، وقرأ فاتحة الكتاب أمن من شر الجن والإنس ومن كل شيء**» .

وفي صحيح البخاري عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، قال ولاني رسول الله ﷺ زكاة رمضان أن أحتفظ بها، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقال: دعني فإني لا أعود، فذكر الحديث وقال: فقال له في الثالثة: أعلمك كلمات ينفعك الله بهن إذا أويت إلى فراشك، فأقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها؛ فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخلى سبيله، فأصبح فأخبر النبي ﷺ بقوله فقال: «**صدقك وهو كذوب**».

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «**إذا أوى الإنسان إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك: اختم بخير، ويقول: الشيطان اختم بشر، فإذا ذكر الله -تعالى- حتى يغلبه يعني النوم، طرد الملك الشيطان وبات يكلأه فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك: افتح بخير، ويقول الشيطان: افتح بشر، فإن قال: الحمد الله الذي أحيا نفسي بعد موتها، ولم يمتها في منامها الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**».

الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده.

الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه.

وفي الصحيحين من حديث سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما إن أحدكم إذا أتى أهله، قال: بسم الله، اللهم، جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فيولد بينهما ولد لا يضره الشيطان أبدًا**».

وذكر الحافظ أبو موسى عن الحسن بن علي قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية أن يعصمه الله من كل شيطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضار، ومن كل لص عاد: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾ وعشرًا من أول الصافات، وثلاث آيات من الرحمن ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** ﴾ وخاتمة سورة الحشر ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ**﴾.

وقال محمد بن أبان: بينما رجل يصلي في المسجد إذا هو بشيء إلى جنبه فجفل منه فقال: ليس عليك مني بأس إنما جئتك في الله تعالى، إئت عروة فسله: ما الذي يتعوذ به، يعني من إبليس الأباليس قال: قل آمنت بالله العظيم وحده، وكفرت بالجبت

والطاغوت، واعتصمت بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم، حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى.

وقال بشر بن منصور عن وهيب بن الورد قال: خرج رجل إلى الجبانة بعد سعاة من الليل. قال: فسمعت حسًا أو صوتًا شديدًا، وجيء بسرير حتى وضع، وجاء شيء حتى جلس عليه قال: واجتمعت إليه جنوده ثم صرخ فقال: من لي بعروة بن الزبير فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله -عز وجل- مر الأصوات، فقال واحد: أنا أكفيكه، قال: فتوجه نحو المدينة، وأنا ناظر، ثم أوشك الرجعة فقال: لا سبيل إلى عروة، وقال: ويلكم، وجدته يقول كلمات إذا أصبح، وإذا أمسى فلا نخلص إليه معهن. قال الرجل: فلما أصبحت قلت لأهلي: جهزوني، فأتيت المدينة فسألت عنه حتى دللت عليه، فإذا شيخ كبير، فقلت شيئًا تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، فأبى أن يخبرني، فأخبرته بما رأيت وما سمعت، فقال: ما أدري غير أني أقول إذا أصبحت: آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم. إذا أصبحت قلت ثلاث مرات وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات، وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال: قال جبريل للنبي ﷺ: «**إن عفريتا من الجن يكيدوك، فإذا أويت إلى فراشك، فقل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، وما يخرج منها ومن**

شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارق يطرق بخير يا رحمن».

وقد ثبت في الصحيح أن الشيطان يهرب من الأذان، قال سهل بن أبي صالح: أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام أو صاحب لنا فنادى مناد من حائط باسمه، فأشرف الذي معي على الحائط، فلم ير شيئًا، فذكرت ذلك لأبي فقال: لو شعرت أنك تلقي هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتًا فناد بالصلاة فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الشيطان إذا نودي بالصلاة ولى وله حصاص**» وفي رواية: «**إذا سمع النداء ولي، وله ضراط حتى لا يسمع التأذين**» الحديث.

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: « **استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار؛ فإن الشيطان قال: قد أهلكتهم بالذنوب، وأهلكوني بقول: لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون، فلا يستغفرون**».

وذكر أيضًا عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه، عن عكرمة قال: بينما رجل مسافر إذ مر برجل نائم، ورأى عنده شيطانين، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه: اذهب، فافسد على هذا النائم، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال: لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل، فذهب إلى النائم فلما دنا منه رجع قال: صدقت. فذهب، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين فقال:

أخبرني على أي آية نمت قال على هذه الآية ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾.

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم: كنت أرى في داري... [١]
فقيل يا أبا النضر تحول عن جوارنا قال: فاشتد ذلك علي فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس والمحاربي وأبي أسامة فكتب إلى المحاربي: أن بئرًا بالمدينة كان يقطع رشاؤها فنزل بهم ركب، فشكوا ذلك إليهم، فدعوا بدلو من ماء ثم تكلموا بهذا الكلام، فصبوه في البئر، فخرجت نار من البئر فطفئت بئرًا على رأس البئر. قال أبو النضر: فأخذت تورًا من ماء، ثم تكلمت فيه بهذا الكلام، ثم تتبعت به زوايا الدار فرششته فصاحوا بين أصرفتنا نحن نتحول عنك وهو: بسم الله أمسينا بالله الذي ليس منه شيء ممتنع، وبعزة الله التي لا ترام ولا تضام، وبسلطان الله المنيع نحتجب، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة ومن شر شياطين الإنس والجن، ومن شر كل معلن ومسر، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار. ويكمن بالليل ويخرج بالنهار، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر إبليس وجنوده، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. أعوذ بما استعاذ به موسى وعيسى وإبراهيم الذي وَفَّى من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن

---

(1) سقط شيء من الكلام والمفهوم بالقرينة أنه كلم من كان يراهم فقيل له: يا أ با النضر.

شر إبليس وجنوده، ومن شر ما يبغي أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾.

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ: «**كذلك العبد يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى**»[1].

أنواع الذكر

الذكر نوعان:

١- ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى.

٢- وذكر أمره ونهيه وأحكامه.

والأول: نوعان: إنشاء وخبر.

فالإنشاء: هو إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، نحو سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا

---

(1) من الوابل الصيب.

إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

وأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو سبحان الله عدد خلقه، فهذا أفضل من مجرد سبحان الله، وقولك: الحمد لله عدد ما خلق في السماء، وعدد ما خلق في الأرض وعدد ما بينهما وعدد ما هو خالق، أفضل من مجرد قولك الحمد لله، وهذا في حديث جويرية أن النبي ﷺ قال لها: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته**» رواه مسلم.

وفي الترمذي وسنن أبي داود، عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح بها، فقال: أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك.

وأما الخبر فهو الخبر عن الرب -تعالى- بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قول الله -عز وجل- يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم،

وهو على كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته إذا وجدها ونحو ذلك.

وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به عليه رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل.

وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع: حمد، وثناء، وتمجيد.

فالحمد لله: إخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبته والرضا به، فلا يكون المحب سالكًا حامدًا ولا المثني بلا محبة حامدًا حتى تجتمع له المحبة والثناء فإن كرر المحامد شيئًا بعد شيء كانت ثناء، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدًا، وقد جمع الله -تعالى- لعبده الأنواع الثلاثة أول الفاتحة، فإذا قال العبد ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قال الله: «**حمدني عبدي**» وإذا قال: ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ قال: «**أثنى علي عبدي**» وإذا قال: ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ قال: «**مجدني عبدي**».

وأما النوع الثاني من أنواع الذكر وهو: ذكر أمره ونهيه وأحكامه فهو أيضًا **نوعان**:

أحدهما: ذكره بذلك إخبارًا عنه بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأحب كذا وسخط كذا، ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره شيء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر، فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه.

ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده، وهذا أيضًا من أجل أنواع الذكر، فهذه خمسة أنواع، وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة وهي الثالثة. فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويزع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار، وأن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة[١].

الذكر والدعاء، وأيهما أفضل

الذكر أفضل من الدعاء، الذكر ثناء على الله -عز وجل- بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء سؤال العبد حاجاته، فأين هذا من هذا، ولهذا جاء في الحديث: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**» ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله -تعالى- والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم

---

(1) من الوابل الصيب باختصار وتصرف يسير للإيضاح.

يسأل حاجته، كما في حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله -تعالى- ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**عجل هذا**» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه -عز وجل- والثناء عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء**» رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم في صحيحه.

وهكذا دعاء ذي النون عليه السلام قال فيه النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**».

وفي الترمذي: «**دعوة أخي ذي النون إذا دعا، وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**» فإنه لم يَدْعُ بها مسلم في شيء قط إلا استجاب له.

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام، ومنه قوله ﷺ في دعاء الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**» ومنه حديث بريدة الأسلمي الذي رواه أهل السنن وابن حبان في صحيحه أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو، وهو يقول: «**اللهم، إني أسألك بأن أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد**» فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعا به أجاب، وإذا سئل به أعطى**».

وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس أنه كان مع النبي ﷺ جالسًا ورجل يصلي ثم دعا: اللهم، إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**» فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله -عز وجل- والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه، وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مستجابًا، فالدعاء الذي تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان أبلغ في الإجابة وأفضل؛ فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله وعرض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته؛ فهذا المقتضى منه، وأوصاف المسؤول مقتضى من الله، فاجتمع المقتضى من السائل والمقتضى من المسؤول في الدعاء، وكان أبلغ وألطف موقعًا، وأتم معرفة وعبودية.

وتأمل قول موسى ﷺ في دعائه: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾.

وقول ذي النون ﷺ في دعائه: ﴿ **لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ وقول أبينا آدم ﷺ ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال «**قل: اللهم، إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**».

فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه -عز وجل- بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معًا، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية[١].

التفاضل بين القراءة والذكر والدعاء

قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر لكل منهما مجردًا، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل بل يعينه، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيها، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة.

وكذلك التسميع، والتحميد في محلها أفضل من القراءة.

وكذلك التشهد، وكذلك: رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني وارزقني بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذكر

---

[1] من الوابل الصيب باختصار.

عقيب السلام من الصلاة ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة.

وكذل إجابة المؤذن والقول كما يقول أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله -تعالى- على خلقه، لكن لكل مقام مقال، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره اختلت الحكمة، وفقدت المصلحة المطلوبة منه، وهكذا الأذكار المقيدة بحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة، اللهم، إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن، مثل أن يتفكر في ذنوبه، فيحدث ذلك له توبة من استغفار، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصنه وتحوطه وكذلك أيضًا قد يحدث للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله -تعالى- وأحدث له تضرعًا وخشوعًا وابتهالا، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرًا، وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطى كل ذي حق حقه، ويوضع كل شيء موضعه؛ فللعين موضع،

وللرجل موضع، وللماء موضع، وللحم موضع، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي، والله -تعالى- الموفق[١] .

مجالس الذكر

قال في المفهم: مجلس ذكر، يعني مجلس علم وتذكير، وهي المجالس التي يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ﷺ وأخبار السلف الصالحين وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين المبرأة عن التصنع والبدع والمنزهة عن المقاصد الرديئة والطمع.

وقال النووي في الأذكار: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله -تعالى- بطاعة، فهو ذاكر لله -تعالى- كذا قال سعيد بن جبير رضي الله عنه وغيره من العلماء.

وقال عطاء، رحمه الله: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وأشباه هذه. انتهى.

عظم حق الله -تعالى- وتقصير العباد في ذلك

عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم، وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم**

---

(1) من الوابل الصيب.

كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم» رواه أبو داود والحاكم في مستدركه.

فأهل السنة قابلوه بالتصديق، وتلقوه بالقبول، وعلموا من عظمة الله وجلاله، وقدر نعمه على خلقه وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزا، وإما جهلا، وإما تفريطًا، وإما إضاعة، وإما تقصيرًا في المقدور من الشكر، ولو من بعض الوجوه، فإن حقه على أهل السموات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، وتكون قوة القلب كلها، وقوة الإنابة والتوكل، والخشية والمراقبة والخوف والرجاء، جميعها متوجهة إليه ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفًا على محبته وتألهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوسًا على ذكره، والجوارح وقفًا على طاعته، قد استسلمت له القلوب أتم استسلام، وذلة له أكمل ذل وخضعت له أعظم خضوع، وقد فنيت بمراده ومحابه عن مرادها ومحابها، فلم يكن لها مراد محبوب غير مراده ومحبوبه ألبتة.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى، وأكثر المطيعين يشح به من وجه، وإن أتى به من وجه، ولعل ما تسمح به نفسه أكثر مما تسمح به مع فضل زهده وعبادته وعلمه وورعه.

فأين الذي لا يقع منه إرادة تزاحم إرادة الله، وما يحبه منه فلا يعتبر غفلة واسترسال مع حكم الطبيعة والميل إلى دواعيها، وتقصير في حق الله -تعالى- معرفة ومراعاة وقيامًا به.

ومن الذي ينظر في كل نعمة من النعم دقيقها وجليلها إلى أنها منة ربه وفضله، وإحسانه فيذكره بها، ويحبه عليها، ويشكره عليها، ويستعين بها على طاعته، ويعترف مع ذلك بقصوره وتقصيره، وأن حق الله عليه أعظم مما أتى به.

ومن الذي يوفي حقًا واحدًا من الحقوق وعبودية واحدة حقها من الإجلال والتعظيم والنصح لله -تعالى- فيها، وبذل الجهود في وقوعها على ما ينبغي لوجهه الكريم مما يدخل على قدرة العبد ظاهرا أو باطنًا، ومع هذا فيراها محض منة الله عليه وفضله عليه، وإن ربه هو المستحق عليها الحمد، وأنه لا وسيلة توسل بها إلى ربه حتى نالها، وأنه يقابلها بما تستحق أن تقابل به من كمال الذل والخضوع، والمحبة والبراءة من حوله وقوته.

ومن الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له، ولو في بعض الأوقات من حركة نفسه وجوارحه أو يترك بعض ما خلق له، أو يؤثر بعض حقوقه ومراده على مراد الله -تعالى- ومرضاته، ويزاحمه به.

ومن المعلوم عقلا وشرعًا وفطرة أن الله -تعالى- يستحق على عبده غاية التعظيم والإجلال والعبودية التي تصل إليها قدرته، وكل ما ينافي التعظيم والإجلال يستحق عليه من العقوبة ما يناسبه.

والشرك والمعصية والغفلة واتباع الهوى، وترك بذل الجهد والنصيحة في القيام بحق الله باطنًا وظاهرًا، وتعلق القلب بغيره، والتفاته إلى ما سواه، ومنازعة ما هو من خصائص ربوبيته ورؤية

النفس والمشاركة في الحول والقوة، ورؤية الملكة في شيء من الأشياء، فلا ينسلخ منها بالكلية، كل ذلك ينافي التعظيم والإجلال، فلو وضع سبحانه العدل على العباد لعذبهم بعدله فيهم، ولم يكن ظالمًا.

وغاية ما يقدر توبة العبد من ذلك واعترافه به، وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالما له، ولو قدر أنه تاب منها، لكن أوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته أن لا يعذب من تاب من ذنبه، واعترف به رحمة وإحسانًا، وقد كتب سبحانه على نفسه الرحمة، فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار أو يدخل به الجنة كما قال أطوع الخلق لربه، وأفضلهم عملا وأشدهم تعظيمًا له لن ينجي أحدًا منكم عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

وكان ﷺ أكمل الخلق استغفارًا، وكانوا يعدون عليه في المجلس الواحد مائة مرة رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم.

وكان يقول: يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالله، إني لأتوب إلى الله وفي لفظ، إني لاستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة.

وكان إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثًا.

وكان يقول بين السجدتين رب اغفر لي وكان يقول في سجوده اللهم اغفر لي خطئي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم

اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت.

وكان يستغفر في استفتاح الصلاة في خاتمة الصلاة، وعلم أفضل الأمة أن يستغفر في صلاته، ويعترف على نفسه بظلم كثير.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ وقال: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾.

فأهل السموات والأرض محتاجون إلى مغفرته كما أنهم محتاجون إلى رحمته.

ومن ظن أنه يستغنى عن مغفرة الله، فهو كمن ظن أنه يستغنى عن رحمته. فلا يستغنى أحد عن مغفرته ورحمته كما لا يستغنى عن نعمته ومنته فلو أمسك عنهم فضله ومنته ورحمته لهلكوا وعذبوا، ولم يكن ظالما وحينئذ فتصيبهم النقمات بإمساك فضله، وكل نقمة منه عدل.

ومما يوضح هذا أن الظلم الذي تقدس عنه أن يعاقبهم بما لم يعملوا ويمنعهم ثواب ما يستحقون ثوابه، وهو سبحانه لا يعذب إلا بسبب كما إذا أراد تعذيب الأطفال والمجانين، ومن لم تقم عليه حجته في الدنيا امتحنهم في الآخرة، فعذب من عصاه منهم بأسباب أظهرها بالامتحان كما أظهر[١] امتحان إبليس سبب عقوبته، فلو أراد

---

(1) لعل العبارة: (كما أ ظهر بامتحان إبليس سبب عقوبته).

تعذيب أهل سمواته وأرضه كلهم لامتحنهم امتحانًا يظهر أسباب تعذيب فيكون عدلا منه، فإنه يعلم من العبد ما لا يعلمه العبد من نفسه، قال الحسن البصري لقد دخلوا النار، وإن حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه سبيلا[١] .

عجز العباد عن القيام بشكر نعم الله على الكمال

فإن كشف علمك عن هذا، ولم يتسع له عقلك، فاذكر النعم وما عليها من الحقوق، ووازن بين شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه لو عذب أهل السموات والأرض لعذبهم، وهو غير ظالم لهم، قال أنس بن مالك: ينشر للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين ديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم، وديوان فيه العمل الصالح، فيأمر الله -تعالى- أصغر نعمة من نعمه، فتقوم فتستوعب عمله فيه ثم تقول: أي ربي وعزتك وجلالك ما استوعبت ثمني، وقد بقيت الذنوب والنعم، فإذا أراد الله بعبده خيراً قال: ابن آدم ضعفت حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك ووهبت لك نعمي فيما بيني وبينك ومما يوضح الأمر أن من حق الله على عبده أن يرضى به رباً وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ وهذا الرضا يقتضي رضاه بربوبيه له في كل ما يقضيه، ويقدره عليه في عطائه له ومنعه وفي قبضه به وبسطه، ورضاه بالإسلام دينًا يوجب عليه رضاه به، وعنه في كل ما يأمره وينهاه عنه ويحبه منه ويكرهه له، فلا يكون في صدره من ذلك حرج بوجه ما ورضاه بمحمد ﷺ رسولا يوجب أن

---

(1) من مختصر الصواعق باختصار.

يرضى بحكمه له، وعليه أن يسلم لذلك، وينقاد له ولا يقدم عليه غيره، وهذا يوجب أن يكون حبه كله لله، وبغضه كله لله، وعطاؤه لله ومنعه لله، وفعله لله وتركه لله، وإذا قام بذلك كانت نعم الله عليه أكثر من عمله، بل فعله ذلك من أعظم نعم الله عليه، حيث وفقه له، ويسره له وأعانه عليه، وجعله من أهله وخصه به، فهو يستوجب شكرًا آخر عليه، فلا سبيل له إلى القيام بما يجب لله -تعالى- عليه من الشكر أبدًا، فنعم الله تطالبه بالشكر، وأعماله لا يقبلها وذنوبه وغفلته وتقصيره قد يستنفد عمله، فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفذان طاعاته كلها، هذا وأعمال العبد مستحقة عليه بمقتضى كونه عبدًا مملوكًا مستعملا فيما يأمره به سيده، فنفسه مملوكة وأعماله مستحقة عليه بموجب العبودية، فلا يستحق ثوابًا ولا جزاء، فلو أمسك الثواب والجزاء الذي يتنعم به لم يكن ظالماً، فإنه يكون قد فعل ما وجب عليه بحق كونه عبدًا، ومن لم يحكم هذا الوضع، فإنه عند الذنوب وعقباتها يصدر منه من الأقوال ما يكون فيها أو في بعضها خصمًا لله متظلمًا منه شاكيًا له، وقد وقع في هذا من شاء الله من الناس، ولو حركت النفوس لرأيت العجب.

ومما يوضح ذلك أنه سبحانه عادل، لو عم أهل السموات والأرض بالعذاب لكان عادلا، فهو إنما ينزل العذاب بسبب من يستحقه منهم ثم يعم العذاب من لا يستحقه، كما أهلك سبحانه الأمم المكذبين بعذاب الاستئصال، وأصاب العذاب الأطفال والبهائم ومن لم يذنب، وكذلك إذا عصاه أهل الأرض أمسك عنهم قطر

السماء، فيصيب ذلك العذاب البهائم والوحوش في الفلوات، فتموت الحبارى في وكرها هزلا بخطايا بني آدم، ويموت الضب في جحره جوعًا، وقد أغرق الله أهل الأرض كلهم بخطايا قوم نوح، وفيهم الأطفال والبهائم، ولم يكن ذلك ظلمًا منه سبحانه، فالعقوبة الإلهية التي اشتركت الناس في أسبابها تأتي عامة، وقد كسر الصحابة رضي الله عنهم في يوم أحد بذنوب أولئك الذين عصوا رسول الله ﷺ وأخلوا مركزهم وانهزموا يوم حنين لما حصل لبعضهم من الإعجاب بكثرتهم فعمت عقوبة ذلك الإعجاب، وهذا عين العدل والحكمة لما في ذلك من المصالح التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

وغاية ما يقال: فهلا خصت العقوبة صاحب الجريمة فيقال: العقوبة العامة التي تبقى آية وعبرة وموعظة، لو وقعت خاصة لارتفعت الحكمة المقصودة منها، وفاتت العبرة، ولم يظهر للناس أنها بذلك السبيل، بل لعل قائلاً يقول: قدرًا اتفق، وإذا أصاب العذاب من لا يستحقه، فمن يثاب في الآخرة معجل له الراحة في الدنيا بالموت الذي لا بد منه، ويتداخل الثواب في الآخرة، ومن لا يثاب كالبهائم التي لا بد من موتها، فإنها تتعجل الراحة وما يصيبها [١]، من ألم الجوع والعطش، فهو من لوازم العدل والحكمة مثل الذي يصيبها من ألم الحر والبر والحبس في بيوتها التي مصلحتها أرجح من

---

[1] لعل العبارة صوابها: (مما يصيبها) فليحرر.

مفسدة ما ينالها، وهكذا مصلحة هذه العقوبة العامة، وجعلها عبرة للأمم أرجح من مفسدة تألم تلك الحيوانات[١].

ما يستقيم به السير إلى الله والدار الآخرة

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله، وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين[٢] وفر منهما إلى قضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا أما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس، وبالله التوفيق[٣].

---

(1) من مختصر الصواعق.

(2) بكل واحدة من القلب واللسان والجوارح حبسان فتنبه.

(3) من الفوائد لابن القيم.

أثر الشهادة عن الموت

لشهادة "لا إله إلا الله" عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها واستخذت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وكان لها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك، وتحققت بطلانه، فزالت منها تلك النازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على ما أيقنت بالقدوم عليه، والمصير إليه فوجه العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم وحدد ظاهرًا أو باطنًا واستوى سره وعلانيته فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره، والالتفات إلى ما سواه، وقد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله؛ فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها، وسرها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفر إلى الله من الناس، وأنس به دون من سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو

تجردت كتجردها عند الموت، لكان هذا نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي والله المستعان [١] .

ما تتم به الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظر في الدنيا: وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها، ولا بد ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا فهي كما قال الله سبحانه ﴿**وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة، فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، زهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل،

---

(1) من الفوائد.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة ، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإن صدق بذلك، ولم يؤثره كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه، وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد الإيمان، وإما من فساد العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم وطرحوها، ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيادة حتى أذن الرحيل.

قال النبي ﷺ: «**ما لي وللدنيا؛ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها**» وقال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع**».

وقال خالقها سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ**

عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

فأخبر عن خسة الدنيا وزهد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها.

وقال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾.

وقال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآَبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ**﴾.

وقد توعد الله أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا، واطمأن بها، وغفل عن الآخرة، ولم يرج لقاءه فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آَيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾.

وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾.

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله، وطلب الآخرة، ويكفى في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾.

وقوله:﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ**﴾ بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون.

وقوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ والله المستعان، وعليه التكلان[١].

أساس كل خير ومفتاحه

أساس كل خير: أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

وقد أجمع العارفون على أن كل خير أصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر أصله خذلانه لعبده، وأجمعوا على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا

---

(1) من الفوائد.

كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجوء والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطى العبد هذا المفتاح؛ فقد أراح أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه، وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته؛ فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم.

وما أتى مَن أتى إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر مَن ظفر بمشيئة الله وعونه إلا قيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء، وملاك ذلك الصبر؛ فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد(1).

---

(1) من الفوائد.

أعظم عقوبة وأسبابها

ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله. خلقت النار لإذابة القلوب القاسية، أبعد القلوب من الله القاسي فإذا قسا القلب قحطت العين.

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم والكلام، والمخالطة، كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته.

القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها، شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة، ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرائف الفوائد، إذا غذي القلب بالتذكر، وسقي بالتفكر ونقي من الدَّغَل – رأى العجائب وألهم الحكمة، خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد: والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة.

للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها: ثلاثة سافلة وثلاثة عالية، فالسافلة: دنيا تتزين له، ونفس تحدثه، وعدو يوسوس له، فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها، والثلاثة العالية: علم يتبين له وعقل يرشده، وإله يعبده، والقلوب جوالة في هذه المواطن[1] .

أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب

أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** ﴾.

وقوله: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾.

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان الذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما حتى أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة، وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع، بل قد سدوا على أنفسهم طرق العلم، والإيمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ، ودعا

---

(1) من الفوائد باختصار.

إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده، وتابعوهم على منها جهم وآثارهم.

والعلم: هو ما جاء به الرسول ﷺ عن الله.

قال تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾.

وقال: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾.

وقال في القرآن ﴿**أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ أي: وفيه علمه.

ولقد أحسن من قال:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف ... بين الرسول وبين رأي فقيه
كلا ولا جحد الصفات ... حذرا من التمثيل والتشبيه

وأما الإيمان: فأكثر الناس أو كلهم يدعونه، ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ وأكثر المؤمنين إنما عندهم إيمان يحمل.

وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسول ﷺ معرفة وعلما وإقرارًا ومحبة ومعرفة بضده وكراهيته وبغضه، فهذا إيمان خواص الأمة، وخاصة الرسول، وهو إيمان الصدق وحزبه.

والإيمان: حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والتصديق به عقدًا والإقرار به نطقًا والانقياد له محبة وخضوعًا والعمل به باطنًا وظاهرا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكما له في

الحب في الله، والبغض في الله، والقضاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده.

والطريق إليه: تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهرًا أو باطنًا، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله، وبالله التوفيق.

وقال أيضًا: الإيمان له ظاهر وباطن وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح.

وباطنه: تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وأن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فيخف العمل ظاهرًا مع عدم المانع، دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته، فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول.

وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول [١].

نصيحة قيمة

هَلُمَّ إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى

---

(1) من الفوائد باختصار.

وما يستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه، ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملا بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين الذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة والنعيم. وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلا لسعادتها.

وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت؛ فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمة والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة، التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب وانقضت عنك بسرعة، أعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب، وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله [١]

(1) من الفوائد.

علامات السعادة وعلامات الشقاوة

من علامات السعادة والفلاح، أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته وكلما زيد في عمله، زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره، نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس وقضائه حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه، زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله، زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه. وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في كبره وتيهه، وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده فيسعد بها أقوام ويَشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك والسلطان، والمال قال -تعالى- عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿ **هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ﴾.

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور كما أن المحن بلوى منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا** ﴾ أي: ليس كل من وسعت عليه وأكرمته

ونعمته يكون إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة له مني[١].

أركان الكفر

أركان الكفر أربعة: الكبر، و الحسد، والغضب، والشهوة؛ فالكبر: يمنعه الانقياد والحسد: يمنعه قبول النصحية وبذلها، والغضب: يمنعه العدل، والشهوة: تمنعه التفرغ للعبادة، فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة.

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة، وملكات وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل ألبتة، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة.

وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئًا منها وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه، فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلا وآجلا، ومن أغلقها عن نفسه،

---

(1) من الفوائد.

أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الانقياد والإخلاص والتوبة والإنابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه.

ومنشأ هذه الأربعة: من جهله بربه وجهله بنفسه، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها، ولم يحسد أحدًا على ما آتاه الله، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معادات الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه، والله يكره ذلك فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته.

ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة؛ لأن ذنبه كان عن كبر وحسد، فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده، والرضا به وعنه والإنابة إليه، وقلع الغضب بمعرفة النفس، وأنها لا تستحق أن يغضب لها، وينتقم لها إن ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها وكذا بالعكس.

وأما الشهوة: فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها ومتعها منها، وحمايتها أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعيًا في حرمانها إياها، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب، كنت ساعيًا في إيصالها إليها على أكمل الوجوه، فالغضب مثل السبع إذا أفلته صاحبه بدأ يأكله، والشهوة: مثل النار إذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقه، والكبر: بمنزلة

منازعة الملك ملكه؛ فإن لم يهلكك طردك عنه. والحسد: بمنزلة معاداة من هو أقدر منك.

والذي يغلب شهوته وغضبه يفرق الشيطان من ظله، ومن تغلبه شهوته وغضبه يفرق من خياله [1].

موانع الوصول إلى المطلوب الأعلى

الوصول إلى المطلوب الأعلى موقوف على هجرة العوائد، وقطع العوائق والعلائق.

فالعوائد، السكون إلى الدعة والراحة، وما ألفه الناس واعتادوه من الرسول والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع وربما كفروه أو بدعوه، وضللوه أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن ونصبوها أندادًا للرسول يوالون عليها ويعادون، فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمتطوعين والعامة، فربي فيها الصغير ونشأ عليها الكبير، واتخذت سننا بل هي أعظم عند أصحابها من السنن، الواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع عم بها المصاب، وهجر لأجلها السنة والكتاب من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو عند الله غير

---

(1) من الفوائد.

مقبول، وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

وأما العوائق: فهي أنواع المخالفات، ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور.

شرك وبدعة، ومعصية فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة، وهذه العوائق لا تتبين العبد حتى يأخذ في أهبة السفر وبتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

وأما العلائق: فهي كل ما تعلق به دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة، ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع.

فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب، هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه [١].

---

(1) من الفوائد.

من جواهر الحكم والفوائد المنثورة

للعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس.

للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضى ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم العمر، محبوب اليوم يعقب المكروه غدًا، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا.

أعظم الربح في الدنيا، أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها في معادها.

كيف يكون عاقلا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة.

المخلوق إذا خفته استوحشت منه، وهربت منه والرب -تعالى- إذا خفته أنست به وقربت إليه، لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين.

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ست مشاهد:

أحدها: مشهد التوحيد، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه.

الثالث: مشهد الرحمة، وإن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه ورحمته عفوه.

الرابع: مشهد الحكمة، وإن حكمته سبحانه اقتضت ذلك لم يقدره سدى، ولا قضاه عبثًا.

الخامس: مشهد الحمد، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس: مشهد العبودية، وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه.

الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من نفعته وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تزين بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة: فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة والنتيجة مستفادة من اللقاح؛ فمن طلب لقاحه طابت ثمرته وهذه الأرواح الطيبة لقاحها من الملك والخبيثة لقاحها من الشيطان وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات وعكس ذلك.

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق فيسقط نفسه وبلغيها فيما بينه وبين الناس ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله: فلا يلتفت إلا إلى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه.

من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه.

أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق.

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب، باب شبهة أورثت شكا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه.

أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكبر، وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد، وهو الذي جرأ أحد ابني آدم على أخيه فمن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد.

جمع النبي ﷺ في قوله: «**فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**» بين مصالح الدنيا والآخرة.

فالآخرة ونعيمها ولذاتها، إنما تنال بتقوى الله، وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناء، والكد والشقاء في طلب إنما ينال بالإجمال في الطلب، فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها، ومن أجمل في الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها فالله المستعان:

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في ذا الخلق من
كم واثق بالعيش أهلكته وجامع فرقت ما يجمع

سر التوكل على الله وحقيقته، هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضر مباشرة الأسباب مع خلو القلب مع الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله وكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء. كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء وتوبة القلب، وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد توكلت على الله مع اعتماد قلبه على

غيره، مثل قوله تبت إلى الله، وهو مصر على معصيته مرتكب لها. اتباع ا لهوى وطول الأمل، مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل، ينسى الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها.

إذا أراد الله بعبد خيرًا جعله معترفًا بذنبه، ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عند غيره، محتملاً لأذى غيره، وإن أراد به شرًا عكس ذلك عليه.

العقول المقيدة بالتوفيق، ترى أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة.

والعقول المضرورة بالخذلان، ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع.

أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

الأصول التي بنيت عليها سعادة العبد ثلاثة: ولكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده، التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية: ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه وما عنده، العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته

وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من دار الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته.

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم، وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة، فتعرف أنت إلى الله، وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة.

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان. فقال له رجل: إني أكثر البكاء فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك. وأن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه، فقال: أوصني فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن في الدنيا كالنحلة، إن أكلت أكلت طيبًا، وأن أطعمت أطعمت طيبًا، وأن سقطت على شيء لم تكسره، ولم تخدشه.

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده، عرفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شره قيدًا يقيدها به حتى لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية، وتقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه

لاجتنابها، وإذا بها قد وافته إليه على أتم الوجوه، وعرفه النعم التي هو فيها، ولا يشعر بها.

ويُحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد فقال: أميرَ المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها: فأعجبه ذلك منه، وقال: ما أحسن تقسيمه.

قال شقيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

قلت: وأصل ذلك: عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم، أو كل آن من آنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه سافر على

الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها، من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح، فعلى قدر الاستعداد للسير.

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره، واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت، تقدم به إلى ربه، وإن شغله يهوى أو راحة وبطالة، تأخر فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق ألبتة.

قال تعالى: ﴿ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ** ﴾ [1].

تذكر القبر وحال ساكنه

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**استحيوا من الله حق الحياء**» قالوا: إنا نستحي من الله، والحمد لله قال: «**ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**».

---

(1) هذه الجواهر والفوائد جمعتها من قواعد وفوائد وفصول متفرقة في كتاب الفوائد لابن قيم الجوزية.

وخرج الترمذي والحاكم من حديث أسماء بنت عميس عن النبي ﷺ قال: «**بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وطغى ونسي المبتدا والمنتهى، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشهوات، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب بذله**».

وخرج الترمذي من حديث ابن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدَّ نفسك من القبور**» وخرج البخاري أوله.

وروى ابن أبي الدنيا عن سريع الشامي قال: قال عمر بن عبد العزيز لرجل من جلسائه: يا فلان، لقد أرقت الليلة مفكرًا قال: فيم يا أمير المؤمنين فقال: في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثالثة في قبره، لاستوحشت من قبره بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام، ويجرى فيه الصديد، وتخترقه الديدان مع تغيير الرائحة، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الرائحة ونقاء الثوب، قال: ثم شهق شهقة خر مغشيًا عليه، وعن محمد بن كعب القرظي قال: بعث إليَّ عمر بن عبد العزيز فتقدمت عليه، فأدمت النظر إليه فقال: يا ابن كعب، إنك لتنظر إلي نظراً ما كنت تنظره إلي بالمدينة قال: قلت: أجل يا أمير المؤمنين، يعجبني ما حال من لونك ونحل من جسمك قال: فكيف يا بن كعب لو أتيتني بعد ثلاثة في القبر، وقد

نبت حدقتاي على وجهي، وخرج الدود والصديد من منخري لكنت إلي أشد نكرة.

وعن وهيب بن الورد قال: بلغنا أن رجلا فقيهًا دخل على عمر بن عبد العزيز فقال: سبحان الله، كأنه تعجب من أمره الذي هو عليه قال له: تغيرت بعدنا فقال له عمر: وتبين ذلك فقال له: الأمر أعظم من ذلك، فقال له: يا فلان، فكيف لو رأيتني بعد ثلاث، وقد أدخلت قبري، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين، وتقلصت الشفتان عن الأسنان، وانفتح الفم ونبأ البطن فعلى الصدر، وخرج الصديد من الدبر.

وعن سعيد بن أبي حمزة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض مدائن الشام: أما بعد، فكم للتراب في جسد ابن آدم من مأكل، وكم للدود في جوفه من طريق يخترق، وإني أحذركم ونفسي – أيها الناس – العرض على الله عز وجل، وروى أبو نعيم والحاكم بإسناد له أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شيع جنازة من أهله ثم أقبل الناس، فوعظهم وذكرهم الدنيا وذمها وذكر أهلها وتنعمهم فيها، وما صاروا إليه بعدها من ظلمة القبر، وكان من كلامه أنه قال: إذا مررت بهم فنادهم إن كنت مناديًا وادعهم إن كنت داعيًا ومر بعسكرهم، وانظر إلى تقارب منازلهم، سل غنيهم ما بقي من غناه، وسل فقيرهم ما بقي من فقره، وسل عن اللسان الذي كانوا به يتكلمون وعن الأعين التي كانوا بها إلى اللذات ينظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة ما صنع بها الديدان

محت الألوان، وأكلت اللحمان، وعفت الوجوه، ومحت المحاسن، وكرت القفا، وأبانت الأعضاء، وخرقت الأشلاء أين حجابهم وقيانهم، وأين خدمهم وعبيدهم وجمعهم وكنوزهم، والله ما زودوهم فرشًا، ولا وضعوا هناك مسكًا، ولا غرسوا لهم شجرًا، ولا أنزلوهم من اللحد قرارًا أليسوا في الخلوات، أليس الليل والنهار عندهم سواء أليسوا في مدلهمة مظلمة، قد حيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة، وكم من ناعم وناعمة، أصبحوا ووجوهم بالية، وأجسادهم عن أعناقهم بائنة، وأوصالهم متفرقة، وقد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه صديدا، ودبت دواب الأرض في أجسادهم، وتفرقت أعضاؤهم ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرًا حتى عادت العظام رميمًا قد فارقوا الحدائق، وصاروا بعد السعة في المضايق، وقد تزوجت نساؤهم وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت القرابات ديارهم وميراثهم فمنهم والله الموسع له في قبره، والفظ الناضر فيه، والمتنعم بلذته يا ساكن القبر غدا ما الذي غرك من الدنيا، هل تعلم أنك تبقى لها أو تبقى لك، أين دارك الفيحاء ونهرك الطرد، وأين ثمرتك اليانعة، وأين رقاق ثيابك، وأين طيبك، وأين بخورك، وأين كسوتك لصيفك وشتائك أما والله قد نزل به الأمر، فما يدفع عنه وخلا، وهو يرشح عرقًا، ويتلظى عطشًا يتقلب في سكرات الموت وغمراته جاء الأمر من السماء، وجاء غالب القدر والقضاء هيهات هيهات يا مغمط الوالد والولد وغاسله، يا مكفن الميت وحامله، يا مخليه في القبر راجعًا عنه، ليت شعري، كيف كنت على خشونة الثرى؟ ليت شعري، بأي خديك

بدأ البلى؟ يا مجاور الهلكى، صرت في محلة الموتى، ليت شعري، ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا؟ وما يأتيني به من رسالة ربي ثم انصرف، فما عاش بعد ذلك إلا جمعة.

وروى عنه من وجوه متعددة أنه قال في آخر خطبة خطبها رحمة الله عليه: ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، يرثها بعدكم الباقون، كذلك تردون إلى خير الوارثين في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا قد قضى نحبه تودعونه وتدعونه في صدع من الأرض غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وقطع الأسباب وسكن التراب وواجه الحساب، غنيًا عما خلف، فقيرًا إلى ما قدم.

ويروى أنه كان في جنازة في مقبرة فرأى قومًا يهربون من الشمس إلى الظل فأنشد شعرًا:

من كان حين تصيب الشمس جبهته
أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته
فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثًا
في ظل مقبرة غبراء مظلمة
يطيل تحت الثرى في عمها اللبثا
تجهزي بجهاز تبلغين به
يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثًا

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن أنه مر به شاب وعليه بردة حسنة، فدعاه فقال: ابن آدم معجب بشبابه معجب بجماله، كأن القبر قد دنا ووارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك دَاوِ قلبك، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

وعن عبد الله بن العيزار قال: لابن آدم بيتان على ظهر الأرض وبيت في بطن الأرض، فعمد إلى الذي على الأرض، فزخرفه وزينه، وجعل فيه أبوابًا للشمال وأبوابًا للجنوب، ووضع ما يصلحه لشتائه وصيفه، فأتى عليه آت فقال: أرأيت هذا الذي أراك قد أصلحته كم تقيم فيه قال: لا أدري قال: والذي خربته كم تقيم فيه قال: إلى يوم البعث قال: تقر بهذا على نفسك وأنت رجل تعقل.

وعن الحسن أنه قال: يومان وليلتان لم تسمع الخلائق مثلهن قط: ليلة تبيت مع أهل القبور، ولم تبت قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة ويوم يأتيك البشير من الله، إما بالجنة أو النار، ويوم تعطى كتابك بيمينك أو بشمالك.

وشهد الحسن جنازة فاجتمع عليه الناس فقال: اعملوا لمثل هذا اليوم رحمكم الله وإنما إخوانكم يقدمونكم وأنتم الأثر أيها المخلف بعد أخيه أنت الميت غدًا والباقي بعدك هو الميت في أثرك أولا فأولا حتى توفوا جميعًا قد عمكم الموت واستويتم جميعًا في كربه وغصصه، ثم تخليتم جميعًا القبور ثم تنشدون جميعًا ثم تعرضون جميعًا على ربكم عز وجل.

وقال صفوان بن عمر: وذكروا النعيم فسموا ناسًا فقال رجل: أنعم رجال في التراب، قد أمنوا العذاب، ينتظرون.

وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه قرأ على قبر:

مـا أحـد أكـرم مـن مفـرد ... فـي قبـره أعمالـه تؤنـسه
مـنعم الجـسم فـي روضـة ... زينهـا الله فهـي مجلـسه

تـزود قرينـا مـن فعلـك إنمـا
قـرين الفتـى فـي القبـر مـا كـان يفعـل
وإن كنـت مـشغولا بـشيء فـلا تكـن
بغيـر الـذي يرضـي إلهـك تـشغل
فلـن يـصحب الإنـسان مـن بعـد موتـه
إلـى قبـره إلا الـذي كـان يعمـل
إلا إنمـا الإنـسان ضـيف لأهلـه
مقـيم قلـيلا عنـدهم ثـم يرحـل(١)

(1) من أهوال القبور باختصار.

أصناف أهل الجنة وأصناف أهل النار

في صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في خطبته: «**وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال، وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له الذين هم فيكم تبع لا يبغون أهلا ولا مالا، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك**» وذكر البخل والكذب والتنظير الفاحش.

ففي هذا الحديث جعل النبي ﷺ أهل الجنة ثلاثة أصناف:

أحدها: ذو السطان المقسط المتصدق، وهو من كان له سلطان على الناس، فسار في سلطانه بالعدل ثم ارتقى درجة الفضل.

والثاني: الرحيم الرقيق القلب الذي لا يخص برحمته قرابته بل يرحم المسلمين عمومًا، فتبين أن القسمين أهل الفضل والإحسان.

والثالث: العفيف المتعفف ذو العيال، وهو من يحتاج إلى ما عند الناس، فيتعفف عنهم، وهذا أحد نوعي الجود، أعني العفة عما في أيدي الناس لا سيما مع الحاجة.

وقد وصف الله في كتابه أهل الجنة ببذل الندى وكف الأذى، ولو كان الأذى بحق فقال: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي**

السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

فهذا حال معاملتهم للخلق.

ثم وصف قيامهم بحق الحق فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾.

فوصفهم عند الذنوب بالاستغفار وعدم الإصرار، وهو حقيقة التوبة النصوح.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾.

والعقبة قد فسرها ابن عباس بالنار، وفسرها ابن عمر بعقبة في النار.

فأخبر سبحانه أن اقتحامها وهو قطعها ومجاوزتها يحصل بالإحسان إلى الخلق إما بعتق رقبة وإما بالإطعام في المجاعة، والمطعم إما يتيم من ذوي القربى أو مسكين قد لصق بالتراب فلم يبق له شيء، ولا بد مع هذا الإحسان أن يكون من أهل الإيمان والآمر

لغيره بالعدل والإحسان، وهو التواصي بالصبر والتواصي بالرحمة، وأخبر سبحانه أن هذه الأوصاف أوصاف أصحاب الميمنة.

وأما أهل النار: فقد قسمهم النبي ﷺ في هذا الحديث خمسة أصناف:

الصنف الأول: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، ويعني الزبر: القوة والحرص على ما ينتفع به صاحبه في الآخرة من التقوى والعمل الصالح وخرج العقيلي من حديث أبي هريرة مرفوعًا «**إن الله يبغض المؤمن الذي لا زَبْرَ له**»: قال بعض الرواة: الحديث يعني الشدة في الحق، ولما حدث مطرف بن عبد الله بحديث عياض بن حمار هذا، وبلغ قوله: «**الضعيف الذي لا زبر له**» فقيل له: أو يكون هذا؟ قال: «**نعم والله لقد أدركتهم في الجاهلية وإن الرجل ليرعى على الحي ما له إلا وليدتهم يطؤها**»، وقال ابن شوذب يقال: إن عامة أهل النار كل ضعيف لا زبر له الذين هم فيكم اليوم تبع لا يبغون أهلا ولا مالا. خرجه عبد الله بن الإمام أحمد في الزهد.

وهذا القسم شر أقسام الناس ونفوسهم ساقطة؛ لأنهم ليس لهم هم في طلب الدنيا ولا الآخرة، وإنما همة أحدهم شهوة بطنه وفرجه كيف اتفق له، وهو تبع للناس خادم لهم أو طواف عليهم سائل لهم.

والصنف الثاني: الخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق إلا خانه، أي: لا يقدر على خيانة، ولو كانت حقيرة يسيرة إلا بادر إليها واغتنمها.

ويدخل في ذلك التطفيف في المكيال والميزان.

وكذلك الخيانة في الأمانات القليلة كالودائع وأموال اليتامى وغير ذلك، وهو خصلة من خصال النفاق، وربما يدخل الخيانة من خان الله ورسوله في ارتكاب المحارم سرًا مع إظهار اجتنابها.

وقال بعض السلف: كنا نتحدث أن صاحب النار من لا تمنعه خشية الله من شيء خفي له.

الصنف الثالث: المخادع الذي دأبه صباحًا ومساء مخادعة الناس على أهليهم وأموالهم، والخداع من أصناف المنافقين كما وصفهم الله -تعالى- بذلك، والخداع معناه إظهار الخير وإضمار الشر لقصد التوصل إلى أموال الناس وأهاليهم والانتفاع بذلك وهو من جملة المكر والحيل المحرمة.

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ من غشنا، فليس منا، والمكر والخداع في النار.

والصنف الرابع: الكذب والبخل، ولم يحفظ الراوي ما قال النبي ﷺ في هذا حفظًا جيدًا والكذب والبخل خصلتان، وفي مسند الإمام أحمد في هذا الحديث الكذب أو البخل بالشك، وقد قيل: إنه عدهما واحدًا كذا قاله مطر الوراق، وهو أحد رواة هذا الحديث والكذب و البخل كلاهما ينشأ عن الشح كما جاء ذلك في الأحاديث، والشح هو شدة حرص الإنسان على ما ليس له من الوجوه المحرمة، ينشأ عنه البخل وهو إمساك الإنسان ما في يده والامتناع من إخراجه في

وجوهه التي أمر بها، فالمخادع الذي سبق ذكره هو الشحيح، وهذا الصنف هو البخيل، فالشحيح أخذ المال بغير حقه، والبخيل منعه من حقه، كذلك روى تفسير الشح والبخل عن ابن مسعود وطاووس وغيرهما من السلف وفي الأثر: أن الشيطان قال: مهما غلبني ابن آدم فلن يغلبني بثلاث: يأخذ المال من غير حله أو ينفقه في غير وجهه أو يمنعه من حقه، وينشأ عن الشح أيضًا الكذب والمخادعة والتحيل على ما لا يستحقه الإنسان بالطرق الباطلة المحرمة.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**».

وفي المسند عن عبد الله بن عمرو قال: سئل النبي ﷺ ما عمل أهل النار: قال: «**الكذب إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار**»

الصنف الخامس التنظير: وقد فسر بالسيئ الخلق، والفحاش هو الفاحش المتفحش.

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي قال: «**إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه**».

وفي الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «**أن الله يبغض الفاحش البذي: والبذي الذي يجري لسانه بالسفه ونحوه من لغو الكلام**».

وفي المسند عن النبي ﷺ قال: «**بحسب امرئ من الشر أن يكون فاحشًا بذيئًا بخيلا جبانا**» فالفاحش هو الذي يفحش في منطقة، ويستقبل الرجال بقبيح الكلام من السب ونحوه، ويأتي في كلامه بالسخف، وما يفحش ذكره.

وخرج الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لا يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار أمير متسلط، وذو ثروة من مال يمنع حق الله في ماله، وفقير فخور**» وخرج الترمذي أوله، وقال: حديث حسن.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النار.

وضد الأصناف الثلاثة من أهل الجنة المذكورين في حديث عياض بن حمار، فإن السلطان المسلط ضد العادل المحسن، والغني الذي يمنع حق الله ضد الرحيم الرقيق القلب لذي القربى، وكل مسلم والفقير الفخور ضد المتعفف الصابر على شدة الفقر وضره، وأوصاف هؤلاء الثلاثة هي الظلم والبخل والكبر، والثلاثة ترجع إلى الظلم؛ لأن الملك يظلم الناس بيده، والبخيل يظلم الفقراء بمنع حقوقهم الواجبة، والفقير يظلم الناس بفخره عليهم بقوله وأذاه لهم بلسانه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث طويل ذكر القائل والقارئ والمتصدق الذين يراؤون بأعمالهم، وقال: أولئك أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة يا أبا هريرة.

وقد يجمع بين هذا الحديث والذي قبله بأن هؤلاء الثلاثة أول من تسعر بهم النار، وأولئك الثلاثة أول من يدخل النار، وتسعير النار أخص من دخولها، فإن تسعيرها يقتضي تلهبها وإيقادها، وهذا قدر زائد على مجرد الدخول، وإنما زاد عذاب أهل الرياء على سائر العصاة؛ لأن الرياء هو الشرك الأصغر والذنوب المتعلقة بالشرك أعظم من المتعلقة بغيره.

وقد ورد أن فسقة القراء يبدأ بهم قبل المشركين.

فروى عبد الملك بن إبراهيم الجدي حدثنا عبد الله بن عبد العزيز العمري عن أبي طوالة عن آنس عن النبي ﷺ قال: «**الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان، فيقال لهم: ليس مَنْ علم كمن لا يعلم**» أخرجه الطبراني وأبو نعيم، وقال: غريب من حديث أبي طوالة تفرد به عنه العمري انتهى، والعمري هذا هو أبو عبد الرحمن الزاهد رحمه الله.

وقد ذكرنا أحاديث متعددة في خروج عنق من النار يوم القيامة يتكلم، وأنها تلتقط من صفوف الخلق المشركين والمتكبرين وأصحاب التصاوير، وفي رواية: «**ومن قتل نفسًا بغير نفس...**» فينطلق بهم قبل سائر الناس بخمس مائة عام.

وروي عن ابن عباس وغيره من السلف أن ذلك يكون قبل نشر الدواوين ونصب الموازين.

وجاء في حديث مرفوع أن ذلك يكون قبل حساب سائر الناس، والله أعلم [1]

الحزن العظيم على المتخلفين عن رفقة السابقين إلى جنات النعيم:

بالله ما عذر امرئ هو مؤمن　　حقًا بهذا ليس باليقظان
بل قلبه في رقدة فإذا استفا　　ق فلبسه هو حلة الكسلان
تالله لو شاقتك جنات النعيـ　　ـم طلبها بنفائس الأثمان
وسعيت جهدك في وصال نواعم　　وكواعب بيض الوجوه حسان
جليت عليك عرائس والله لو　　تجلى على صخر من الصوان
رقت حواشيه وعاد لوقته　　ينهال مثل نقي من الكثبان
لكن قلبك في القساوة جاز حد　　الصخر والحصباء في أشجان
لو هزك الشوق المقيم وكنت ذا　　حس لما استبدلت بالأهوان
أو صادقت منك الصفات حياة　　ـب كنت ذا طلب لهذا الشأن

يا سلعة الرحمن لست رخيصة　　بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها　　في الألف إلا واحد لا اثنان

---

(1) من التخريف من النار باختصار.

يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن سوقك كأسد بين الأراذل سفلة الحيوان
يا سلعة الرحمن أين المشتري فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن كيف تصبر الخ طاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى رب العلى بمشيئته الرحمن
فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد راحاته يوم المعاد الثاني
وإذا أبت ذا الشأن نفسك فا تهمها ثم راجع مطلع الإيمان
فإذا رأيت الليل بعد وصبحه ما انشق عنه عموده لأذان
والناس قد صلوا صلاة الصبح وانـ تنظروا طلوع الشمس قرب زمان
فاعلم بأن العين قد عميت فنا شد ربك المعروف بالإحسان
واسأله إيمانا يباشر قلبك المح جوب عنه لتنظر العينان
واسأله نورًا هاديًا يهديك في طرق المسير إليه كل أوان
والله ما خوفي في الذنوب فإنها لعلى طريق العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب تحكيم هذا الوحي والقرآن
ورضاء بآراء الرجال وخرصها لا كان ذاك بمنة الرحمن
فبأي وجه ألتقي ربي إذا أعرضت عن ذا الوحي طول
وعزلته عما أريد لأجله عزلا حقيقيا بلا كتمان
صرحت أن يقيننا لا يستفا دبه وليس لديه من إتقان

أولـــه هجـــرًا وتـــأويلا وتحـــ ـــريفًا وتفويـــضًا بـــلا برهـــان

وســعيت جهــدي في عقوبــة بعـــراه لا تقليـــد رأي فـــلان

يــا معرضــا عمــا يــراد بــه وقــد جـــد المـــسير فمنتهـــاه دان

جـذلان يـضحك آمنـا متبخـترًا فكأنــه قــد نــال عقــد أمــان

خلـع الـسرور عليـه أوفى حلـة طهـرت جميـع الهـم والأحـزان

يختــال في حلــل المــسرة ناسـيًا مــا بعـدها مـن حلـة الأكفـان

مـا سـعيه إلا لطيـب العـيش في الـدنيا ولـو أفـضى إلى النـيران

قد باع طيب العيش في دار النـ ـعيم بذا الحطام المضمحل الفان

إني أظنـــك لا تـــصدق كونـــه بــالقرب بــل ظــل بــلا إيقــان

بـل قـد سمعـت النـاس قـالوا جنة أيــضًا ونــار بــل لهــم قــولان

والوقـف مـذهبك الـذي تختـاره وإذا انتهـى الإيمـان للرجحـان

أم تؤثر الأدنى عليه وقالت النـ ـفس التي استعلت على الشيطان

أتبيــع نقــدا حاصــلا بنــسيئة بعد الممات وضي ذي الأكوان

فلــو أنــه بنــسيئة الــدنيا لهــا ن الأمــر كلــن في معــاد ثــان

دع ما سمعت الناس قالوه وخذ مــا قــد رأيــت مــشاهدًا بعيــان

والله لو جالست نفسك خاليًا وبحثتهـــا بحثًـــا بـــلا روغـــان

لرأيــت هــذا كامنًــا فيهــا ولــو أمنــــــت لألقتـــــه إلى الآذان

هـذا هـو الـسر الـذي مـن أجلـه اختـارت عليـه العاجـل المتـدان

نقـد قـد اشـتدت إليـه حاجـة منهـــا ولم يحـــصل لهـــا بهـــوان

أتبيعـــه بنـــسيئة في غـــير هـــ ـذي الـدار بعـد قيامـه الأبـدان

هـذا وأن جزمـت بهـا قطعًـا ولـ ـكـن حظهـا في حيـز الإمكـان

ما ذاك قطعيًا لها والحاصل المـ وجـود مـشهود بـرأي عيـان
فتألفت من بين شهوتها وشبـ هتهـا قياسـات مـن الـبطلان
واستنجدت منها رضا بالعاجل أدنى على الموعـود بعـد زمـان
وأتـى مـن التأويـل كـل ملائـم لمرادهـا بارقـة الإيمـان
وصفت إلى شبهات أهل الشرك تعطيـل مـع نقـص مـن العرفـان
واستنقصت أهل الهدى ورأتهم في النـاس كالغربـاء في البلـدان
ورأت عقـول النـاس دائـرة علـى جمـع الحطـام وخدمـة الـسلطان
وعلى المليحة والمليح وعشرة الأ حبـاب والأصـحاب والإخـوان
فاستوعرت ترك الجميع ولم تجد عوضًـا تلـذ بـه مـن الإحـسان
فالقلـب لـيس يقـر إلا في أنـا فهـو دون الجـسم ذو جـولان
يبغـي لـه سـكنًا يلـذ بقربـه فـتراه شـبه الوالـه الحـيران
فيجـب هـذا ثم يهـوى غـيره فيظـل منـتقلا مـدى الأزمـان
لـو نـال كـل مليحـة ورياسـة لم يطمـئن وكـان ذا دوران
بـل لـو ينـال بأسـرها الـدنيا لمـا قـرت بمـا قـد نالـه العينـان
نقـل فـؤادك حيـث شـئت مـن واختر لنفسك أحسن الإنسان
فالقلب مضطر إلى محبوبه الأ علـى فـلا يغنيـه حـب ثـان
وصـلاحه وفلاحـه ونعيمـه تجـر يـد هـذا الحـب للـرحمن
فـإذا تخلـى منـه أصـبح حـائرًا ويعـود في ذا الكـون ذا هيمـان

فصل في زهد أهل العلم والإيمان، وإيثارهم الذهب الباقي على الخزف الفاني

لكـن ذا الإيمـان يعلـم أن هـ ذي كـالظلال وكـل هـذا فـانِ

كخيال طيف ما اشتم زيارة إلا وصبح رحيله بأذان
وسحابة طلعت بيوم صائف فالظل منسوخ بقرب زمان
وكزهرة وافى الربيع بحسنها أو لامعًا فكلاهما أخوان
أو كالسراب يلوح للظمآن وسط الهجير بمستوى القيعان
أو كالأماني طاب منها بالقول واستحضارها بجنان
وهي الغرور رؤوس أموال ليس الأولى تجروا بلا أثمان
أو كالطعام يلذ عند مساغه لكن عقباه كما تجدان
هذا هو المثل الذي ضرب ل لها وذا في غاية التبيان
وإذا أردت ترى حقيقتها منه مثالا واحدًا ذا شان
أدخل بجهدك أصبعا في اليم ـظر ما تعلقه إذا بعيان
هذا هو الدنيا كذا قال الرسو ل ممثلا والحق ذو تبيان
وكذلك مثلها بظل الدوح في وقت الحرور لقائل الركبان
هذا ولو عدلت جناح بعوضة عند الإله الحق في الميزان
لم يسق منها كافرًا من شربة ماء وكان أحق بالحرمان
تالله ما عقل امرؤ قد باع ما يبقى بما هو مضمحل فانِ
هذا ويفتى ثم يقضي حاكمًا بالحجر من سفه لذا الإنسان
إذ باع شيئًا قدره فوق الذي يعتاضه من هذه الأثمان
فمن السفيه حقيقة إن كنت عقل وأين العقل للسكران
والله لو أن القلوب شهدن منّـ ـا كان شأن غير هذا الشأن
نفس من الأنفاس هذا قسناه بالعيش الطويل الثاني
يا خسة الشركاء مع عدم ء وطول جفونها مع الهجران

هل فيك معتر فيسلو عاشق بمصارع العشاق كل زمان
لكن على تلك العيون وعلى القلوب أكنة النسيان
وأخو البصائر حاضر متيقظ متفرد عن زمرة العميان
يسمو إلى ذاك الرفيق الأرفع على وخلِّ اللعب للصبيان
والناس كلهم فصبيان وإن بلغو سوى الأفراد والوحدان
وإذا رأى ما يشتهيه قال مو عدك الجنان وجد في الأثمان
وإذا أب إلا الجماح أعاضها بالعلم بعد حقائق الإيمان
ويرى من الخسران بيع الدائم الباقي به يا ذلة الخسران
ويرى مصارع أهلها من حوله وقلوبهم كمراجل النيران
حسراتها هن الوقود فإن زادت سعيرًا بالوقود الثاني
جاؤوا فرادى مثل ما خلقوا ما معهم شيء سوى
تسعى بهم أعمالهم سوقًا إلى الدارين سوق الخيل بالركبان
صبروا قليلا فاستراحوا دائما يا عزة التوفيق للإنسان
حمدوا التقى عند الممات كذا السري عند الصباح فحبذا
وحدت بهم عزماتهم نحو وسروا فما نزلوا إلى نعمان
باعوا الذي يفنى من الخزف س بدائم من خالص العقيان
رفعت لهم في السير أعلام دة والهدى وأذلة الحيران
فتسابق الأقوام وابتدروا لها كتسابق الفرسان يوم رهان

وأخو الهويا في الديار مخلف — مع شكله يا خيبة الكسلان

(1) من الكافية الشافية

خاتمة

العجب كل العجب من أربعة:

أحدها: من عاقل غير عالم، أما يهتم بمعرفة ما بين يديه، أما يتعرف ما هو مطلع بعد الموت عليه بالنظر في هذه الدلائل والعبر، والاستماع إلى هذه الآيات والنذر، والانزعاج بهذه الخواطر والهواجس في النفس، قال الله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ وقال تعالى: ﴿**أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾.

والثاني: من عالم غير عامل بالعلم، أما يتفكر أما يعلم يقينًا مما بين يديه من الأهوال العظام والعقبات الصعاب، وهذا هو النبأ العظيم الذي أنتم عنه معرضون.

والثالث: من عامل غير مخلص أما يتأمل قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾.

والرابع: من مخلص غير خائف، أما ينظر إلى معاملاته جل جلاله مع أصفيائه وأوليائه وخدمه الدالة بينه وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق عليه: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ وهذه ونحوها حتى حكي أنه كان عليه السلام يقول شيَّبتي هود وأخواتها.

ثم جملة الأمر وتفصيله، ما قاله رب العالمين في أربع آيات من الكتاب العزيز قوله -عز وجل- ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾.

ثم قال جل اسمه: ﴿**وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

ثم قال جل من قائل: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾.

ثم أجمل الكل فقال: وهو أصدق القائلين: ﴿ **وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾.

ونحن نستغفر الله -تعالى- من كل ما زل به القدم أو طغى به القلم، ونستغفره من كل أقاولينا التي لا توافق أعمالنا، ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله -تعالى- مع التقصير فيه، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتزين في كتاب سطرناه، أو كلام نظمناه أو علم أفدناه، ونسأله أن يجعلنا وإياكم يا معشر الإخوان بما علمناه عاملين، ولو جهة مريدين، وأن لا يجعله وبالا علينا، وأن يضعه في ميزان الصالحات إذا رُدت أعمالنا إلينا، إنه جواد كريم وبهذه الخاتمة والدعوات ختمنا هذا المجموع في يوم السبت الثامن والعشرين من شهر جمادي الأولى من سنة سبع وثمانين وثلاث مائة وألف من الهجرة النبوية، في بلد ليلى من الأفلاج وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ١٣٨٧/٥/٢٨ هـ.

بعـون الله وحـسن توفيقـه قـد تم طبـع تـذكرة الـنفس والإخـوان
بمطابع دار النصر للطباعة

فهرس الكتاب